بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواجب الوجود . الحي القيوم المعبود . المنزه عن الوالد والمولود . المبرأ عن الحدود والقيود . الذي لا يبطنه الخفاء ولا يكشفه الشهود . ولا يحويه مكان ولا يباينه موجود . الذي تقدس من أن تحيط الافكار بكنه جماله . وترفع من أن تناله الرويات في سرادقات كماله . وتعالى من أن تدركه الخواطر في سبحات جلاله .

أحمدك اللهم حمد من يقرّ بأن غاية المعرفة بك الاقرار بالعجز والتقصير . ونهاية الحظوة منك التحقق بانك فوق متدور التفكير والتقدير . وقصارى الايمان بك التصديق بأنك غير كل ما يهجس بالضمير ويقبل التعبير .

اللهم اني أشهد بأنك الموجود الذي تتلاشى عزائم التصورات دون الالمام بذاتك . وتتفاني قوى الرويات دون حصر كمالاتك . فصلّ اللهم على محمد الذي بعثته بهذه العقيدة النقية . المنزهة عن الظنون البشرية . الطاهرة من الفروض الفكرية . التي لو تمالأ الانس والجن على هدمها لفشلوا . ولو أدركها الملحدون لآبوا للايمان وعقلوا . وندموا على ما فرطوا وجهلوا . اللهم صل عليه صلاة تليق بذاته النورانية . وتلائم مقامه من العوالم الروحانية . وتزيده قرباً من عظمتك الرحمانية . وعلى آله وصحبه شموس الهداية والارشاد . وكواكب العرفان والسداد . ومن تبعهم من بعدهم الى يوم الدين .

(أما بعد) فان الانسان مولع بالبحث والتنقيب مغرم بالتحري والتنقير يود أن ينفذ الى صميم الاشياء ليعرف كنهها ويسري الى سرائرها ليقف على مبدأها ولا يصدفه عن همه هذا مايصادفه من اخفاق وما يعتريه من تعجز . وهي خصوصية ستعلو بمعلوماته

الى اوج لا نستطيع ادراكه اليوم . نهم الانسان بمعرفة ما هو محجوب عنه وكلفه بكشف ماهو مستور عليه يكاد يستحيل عند بعض الحساسين من افراده الى نار يحترق لها الفؤاد حسرة وتطير لها النفس شعاعاً ولكنه مع ذلك لم يوهب ما ينقذه من هذه الحيرة دفعة واحدة او يرفعه الى ذروة مشتهيات روحه بلا تدريج خشية عليه من نتائج الطفرة وابقاء عليه من الشذوذ عن المجموع . وهذه حكمة من الخالق جلت رحمته وعناية منه بهذا النوع الضعيف .

ان اكبر المسائل التي يشغل حلها كل لب بغير استثناء ويستولى على كل لب من أية طبقة كان هي الوقوف على حقيقة الحقائق التي منها استمد هذا الوجود روح قوامه ومادة بقائه وبها برز الى عالم الشهادة من حجب الغيوب . وقد بلغ الانسان من الاهتمام بأمر هذه الحقيقة الى حيث فقد الطمأنينة والراحة وصارت كل خطرة من خطراته تعبر عما يخالج الصدر من الشوق اليها والحنين عليها .

لا تتصور ان قلباً انسانياً تمتع بخصائص الشعور والحساسية الباطنية مهما كان صاحبه نازل الدرجة في العلم دنيء القسط من الفهم يخلو من هذا التحرق او يقل اهتمامه بهذه المسألة لانها مهما كانت عمومية فانها تستحيل الى مسألة حياته الخصوصية وليس في نوع الانسان فرد لا يهتم بحياته او يستوي لديه طرفا البقاء والعدم . طبع الانسان على حب الحياة وايثارها وجبل على الدفاع عنها وتحرى سبل الطمأنينة عليها . وأنى له ذلك وهو جاهل بأصلها ومحتدها بل بأصل الوجود كله ؟ أنى له راحة الضمير ورباطة الجأش وهو لا يعلم ما هو ومن اين أتى والى اين يذهب ؟ أي جبان لا يهتم بذاته وأي فاقد الاحساس لا يؤبه لحياته ؟ اذا كان الانسان يحرق لجهله ما يحيط به من الاجسام ويكاد يخرج من ذاته ليطل على سريرتها فكيف به وهو يجهل اصل الاصول وحقيقة الحقائق ؟ نعم ان من الناس من اذا ألم بهم هذا النوع من الشعور تاهوا عنه بما يؤثر على حواسهم ومشاعرهم ولكنا نعلم كلنا حق العلم ان هؤلاء في مقدمة من يعترفون بأن لهم ساعات من الفكر تكاد تذهب بحياتهم حزناً وكمداً . تلك الساعات التي يتذكرون فيها انهم سيلجأون يوماً من الايام الى اليأس من انفسهم وانهم سيذوقون فيها من ألم الفؤاد ما يودون معه أن لو كانوا تراباً تذروه السافيات وتبدده العواصف .

ما ذا يريد الوثني من السجود أمام اوثانه ؟ وماذا يريد الملحد من اقامة الادلة على فناء جثمانه ؟ قد علمنا ان الاول يضرع لاله المجعول لينجي نفسه العزيزة من مبيدات الوجود . فما بال الثاني ؟ هل أتيح له من رباطة الجأش وثبات الفؤاد ما يسهل له هوة العدم ويهون له ظلمة الفناء بعد طيب الحياة ؟ لا . أما والحقيقة انه ليكتب ما يكتب وفؤاده يقطر دماً ومهجته تذوب ألماً بل لم يحمله على تجشم التعسف في التفلسف غير ما في ضميره من وخزات الالم وطعنات الشكوك . يدل على هذا تهالكهم في هذه الايام على مسائل استحضار الارواح ذلك التهالك الذي نتعجب منه نحن معشر الشرقيين . لا جرم انهم لما رأوا منفذاً لطرد شكوكهم التي تقتلهم في اليوم الف مرة خفوا اليه يهرعون من كل مكان ليؤاسوا بمشاهداتهم الحسية تلك الجراح التي سببتها لهم التعاليم الالحادية المادية .

بناء على كل ماتقدم فالمسألة اللاهوتية هي مسألة المسائل ومفك جميع المشاكل والمعاضل من حلها فقد نال سعادة الأبد وتخلص من كل كمد وهم على النفس والولد . ومن فقدها فقد فقد مزية البقاء واستهدف لنبال اللأواء وعاش في الدنيا آسفاً حزيناً وخرج منها كمداً مهيناً . نعم هي مسألة شغلت كل حكماء العالم منذ القدم ولم تزل الشغل الشاغل لكبار العقول حتى اليوم وقد طرأ على حلولها من التغيير والتبديل وعلى براهينها من التحوير والتحرير على قدر ارتقاء الفكر الانساني ماجعلها في عداد المسائل الرياضية تقريباً من حيث سهولة الاستدلال عليها . وهذه خطوة كبرى من خطوات البشر تعد من مميزات القرن التاسع عشر . لهذا رأينا ان لانحرم ابناء ملتنا من نتائج هذه المحاولات الفكرية الجديدة لنريهم بالبرهان المحسوس صدق ماطالما تناهد ورددناه ان كل خطوة يخطوها البشر في سبيل الرقي العلمي هي تقرب الى ديننا الفطري حتى سينتهي الأمر الى الاقرار الاجماعي بأنه الدين الحق . فاللهم نسألك ان تجعل كتابنا هذا خالصاً لوجهك الكريم وان تنفع به قارئيه بحق نبيك ورسولك سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين . آمين

﴿ الانسان والايمان ﴾

اذا كان هذا الجسم المادى محتاجاً لمأوى يأوي اليه ليتقى فيه افاعيل الطبيعة المحيطة به وغوائل الاعراض التى تكتنفه من سائر جهاته فليست الاحساسات المعنوية والعواطف القلبية باقل احتياجاً من ذلك الجسم لموئل تعتصم فيه مما يتجاذبها من عوامل الشعور الذي غرس فيها بحكم الفطرة الاصلية . ليس الانسان كالحيوان يقنع بما يسد حاجيات جثمانه من مأكل ومشرب ولايبالى بعد ذلك بما يسوقه اليه القدر فى غده او بعد غده . كلا بل للانسان مطالب روحانية لايقل حنين احساساته عليها وشغف اميـاله بها عما يصيبه من فقد مطالبه المادية بل ربما دق الشعور فى بعض الـكاملين من هذا النوع الانساني فآثر الوصول الى مشتهيات روحه على كل مطلب جثمانى أياً كان نوعه . بل لا يخلو واحد منا من شعوره حيناً من الاحيان بحالة يود فيها لو نال راحته الضميرية التامة ولو جرده ذلك من كل مالديه من بهرج الدنيا وزيتها المموهة . اناشدك الله اما ألم بك شعور ما فى حين من احيان حياتك بعثك للنظر فى نفسك ومصيرها وفى دنياك واحوالها وفيما يحيط بك من الكائنات على اختلاف انواعها واجناسها فتولد فيك احساس سام لم يكن فيك من قبل ؟ احساس اراك رأي العـين ان ليس لك فى هذا الكون المحسوس مقنع تقف عنده ولاموئل تعتصم فيه من مهددات هذه الحياة القصيرة الأمد . احساس اهاب بك عن الركون لمموهات هذه الاشياء الارضية وصاح بك لتفتق الحجب التي رانت على فؤادك فمنعته من الاشراق على حقيقة سر يخفق له فؤادك الذى بين جنبيك . احساس سماوي ليس من طبيعة هذه الجبلة الحيوانيـة صغر لك الوجود على ضخامة اجزائه وحقر لك هذا الملكوت الأرضى على كبر ابعاده وشخص لك مخاوفه ومعاطبه تشخيصاً دفعك الى تلمس المخلص منه والمحيص عنه . اما والعلم لولم يكن الله جات حكمته رحم هذا النوع فجعل شواغله المادية مانعة له من الاسترسال في هذا الشعور لترك الناس عمـار الدنيا وخرجوا على وجوههم فى القفار يجأرون الى الله ويلتدمون صدورهم رهباً من هذا الخطر المحدردق ورغباً فى تلمس المخرج من هذه الغوائل المصمية . دع

سماسرة المادة جانباً واطرح اقوال مروجة الزخارف والأباطيل وارجع لنفسك لحظة من لحظات حياتك العزيزة واستفت هذا الفؤاد المرتجف بين جنبيك واستنبئ مايتنازعه من احساسات ومشاعر ثم تعال فقل لي الى اي مدى وقفت بك مراميك الداخلية وفي اي نقطة من هذا المحتد الطيني سكن اضطراب فؤادك الولهان ؟ ثم انبئني بماذا حكمت على الارض وخيراتها والسماء وثرياتها والمناصب وحفاواتها والالقاب وكرامتها والثروة ومموهاتها ؟ ألم تجل لك كلها هباء منثوراً آيلة الى التلاشي والفناء وان مثالها اليوم بالنسبة ليك كمثالها فى الغد : اسباب شقاء وبلاء ومثارات شدة وعناء ودواعي آلام واسقام ومسارح اوهام واحلام ؟ هل بعد المشاهدة برهان او غير التجارب عرفان ؟ لقدرأيت من قبلك ممن نال من بسطة الجاه والسلطان ولذة الثروة والشان رجالاً سجد الناس امام آرائكهم وعبدوهم دون بارئهم . فماذا كان مصيرهم والى اى بيئة وصل امثلهم ؟ ألم يدسوا فى الارض كما يدس القذر وتخلى عنهم كل بطانة ووزر وغرتهم العلياء الارضية حيناً ثم اهوتهم عن عروشهم كما تهوي الشجر فى يوم شديد العواصف .

نعم للانسان في لحظات راحته وسكونه مسارح فكرية فيامثال هذه المرامي السامية التى هي من مميزات الروح الانسانية وليس فؤاد الجاهل باقل شعوراً بها من فؤاد العالم وليست هي في مكان وزمان اشد منها في زمان ومكان آخرين . تدل على ذلك اشعار الامم واغانيهم منذ القدم فانها تترجم عن مثل هذا الشعور السامي وترينا انه فطري فينا وان دون انتزاعه منا نزع الفؤاد من بين الجوانح .

كل حادثة من حوادث الحياة توقظ فينا هذا الشعور وتجعله فى اشد درجاته فما مرض الاقرباء والاصدقاء وما حزن الاولياء والأخلاء وما مصائبنا في النفس والاهل والمال الا منبهات لهذا الشعور ومذكيات له وما اكثر استهداف الانسان لمثل هذه الحادثات فى مدى حياته القصيرة الأمد . الانسان فى اثناء تلبسه بهذا الشعور يحتاج الى مواس يواسيه ومؤال يواليه الهدو ويوليه ومعتمداً يعتمد عليه فيما وقع فيه . ليس وقت الشعور بالمصيبة دور تمنّ وتأميل حتى يكتفي الانسان من التأسية بما يؤثر على خياله ولو توهماً كما هو شأنه فى بعض الاحيان بل هذا دور جدّ وعمل ينبعث الانسان فيه لتلمس تأساء حقه يصرف بها حرارة هذا الشعور فيه ساعة احتدامه والا أحرق اليأس

فؤاده وناهيك به من سعير . نعم يحتاج الى مؤاس يفاتحه بما يشكو منه معتقداً انه اشفق عليه من ابيه وأمه ومن الناس اجمعين . مؤاس يحس انه مهتم بشأنه وقادر على تخيبته مما وقع فيه . مؤاس يرضى الانسان أن يلقي نفسه بين يديه القويتين فتحفظانه من السقوط وتقيمانه على نهج الطريق .

اذا أصيب الانسان بمصيبة تلظى فؤاده ناراً وكادت نفسه تطير شعاعاً وشعر بحقيقة ضعفه ووهنه وأحس بضؤولة قواه وحوله وأدرك كنه مركزه فى هذا الوجود الهائل وعرف انه فيه غريب فريد بل طريد شريد . اينما يوجه وجهه فلا يجد معيناً له على بلائه ولا مقيلا له من تعثره في ذيول لأوائه . يرفع رأسه الى السماء فلا يرى الا الكواكب الزهر تسبح في آل الفضاء والصمت شعارها والسكوت ديدنها . ويرمي بعينيه الى الارض فلا يرى الا غيراناً وجبالا وهضاباً وتلالا ان ناجاها ارتد عليه صوته او ذهب ادراج الرياح . ثم يرجع الى نفسه فيرى حوله قومه وبنى ابيه وليس فيهم واحد منزه عن مثل ما ألم به فايسوا بأقل احتياجاً لتلمس الخلاص من مهددات الوجود ومبيدات الحياة . اذن ما ذا يعمل الانسان وهو في تلك الحالة الحرجة والموقف الصعب باى ركن يعتصم والى اى ملاذ يلوذ ؟ على اى سند يعتمد وفى اى مساعد يؤمل النجاة ؟ ليس امامه الا الترامى بين يدي تلك القوة الازلية التى اخرجته من العدم(١) وقضت عليه بما هو فيه من الشقاء والمحنة . تلك القوة التى اقامت هذا الوجود على دعائم الحكمة المتناهية . تلك القوة التى لم تضع شيئاً فى غير محله ولم تهب شيئاً بدون فائدة . تلك القوة التى وهبت الانسان هذا الفكر الطموح والعقل الجموح و الاحساسات المتعاكسة والاميال المتضاربة لحكمة بالغة ومقصد عظيم . اذا القى الانسان بنفسه بين يدي هذه القوة ثلج صدره واطمأن على نفسه لتحققه ان هنالك قوة معتنية به ومهيمنة عليه . ولو فقد الانسان الثقة بهذه القوة فكيف تدخل نفسه طمأنينة ام كيف يتذوق لذة الراحه والسكينة ؟

الانسان مفتقر في كل لحظة من لحظاته الى من يشاركه فى احساساته ويشاطره فى احزانه واشجانه فكيف به لو فقد الثقة باصل حياته ورأى نفسه فى هذه اللانهاية

(١) نعتذر عن استعمالنا لفظ (قوة) فى هذا الموضع فان المقام اقتضى ذلك

وحيدا ضعيفاً مهدداً في كل لحظة بما بيده ويبدده ؟

الانسان يحتاج الى روح من الامل فى كل حركة من حركاته فى اعماله فكيف به لو تولاه اليأس فى وجود من يعتمد عليه عند ما تلم به جسام المصائب وعظام النوائب ؟

الانسان انسان بروحه اكثر مما هو بجثمانه فهو محتاج فى كل خطرة من خطرات احساساته ومراميه الى غاية كمالية يوجه اليها تلك الاحساسات والمرامى فكيف به لو عمي عن روح الوجود وقيومه ومنتهى كل جمال وكمال ولم ير في كل هذا الكون الهائل الا ذلك الصمت المرعب والسكون المهيب ؟

أليس من المؤلم للانسان والجارح لفؤاده ان يتوهم ان هذه اللانهاية المحيطة به من كل جانب خالية من سميع مجيب وانه لا شيء فيها يسمع ضراعته القلبية ولا مناجاته السرية ؟ أليس من الثقيل عليه ان يرمي ببصره الى السماء فلا يبصر فيها الا فراغاً مدهشاً وسكوناً مريعاً ؟

لقد دلت الآثار التاريخية ان الانسان جعل الايمان دائماً اشفق المسلين له فى مصائبه وأرأف المعزين له فى نوائبه . فكم فؤاد موجع بنازلة لولا الايمان لانفطر وكم كبد حرى لولاه لذابت كمداً وحسرة ! ما ذا يهبط روح السكينة والتأساء على عزيز قوم ذل او غني قوم افتقر اذا جلس يفتكر فيما آل اليه حاله وسط الليل الحالك وهو يتنفس الصعداء غير (ايمانه) بأن معه من يعلم السر وأخفى ويقدر على منحه الصبر على مصيبته او القوة على استرداد ثروته . ثم ما ذا ينزل روح الصبر والسلوان على روح أمّ فقدت ولدها فى ريعان شبابه وميعة صباه غير (ايمانها) بانه اصبح وديعة لدى مبدعه الذي هو اشفق عليه منها فى عالم غير هذا العالم . ثم تل ما ذا يقود الرجل الى ايراد نفسه موارد العدم وارسالها الى عالم الفناء غير (عدم ايمانه) بهذه القوة المهيمنة على مقادير البشر ؟ أما يسوغ لنا ان نقول ان (الايمان) لازم من لوازم الانسانية وضرورة من ضروريات الحياة الارضية من فقده فقد طيب الحياة ولو ملك الدنيا بحذافيره . ومن وجده فقد وجد راحة الابد ولو كان بين انياب الفاقة ومخالب الفقر المدقع .

ولقد نرى ويرى اهل البصر كل يوم ان الناس يتفاوتون في الصبر على المكاره والجلد عند لقاء الملمات على قدر ما أوتوا من قوة (الايمان) حتى قد تنتهي الحالة ببعض

الافراد منهم الى المساواة بين آثار النعمة والمصيبة لاعتبارات سامية يؤديهم اليها شدة ايمانهم وثبات يقينهم ولعل هذا هو غاية ماينشده الفلاسفة من سعادة الدنيا . أما يجب اذن على الذين يبيتون حيارى وجلين ينتظرون وقوع المحن عليهم ويصبحون خائفين واهمين يبكون على انفسهم قبل أن يحاط بهم أن يسعوا فى تقوية ايمانهم وتمنيته بدل حسو السلافة ليتناسوا ما هم فيه تناسياً وقتياً ثم يعود اليهم الوجل بأشد مما ذهب . على ان الفرق بين الطريقين عظيم . فان الرجل الذى يعمل لتناسى ما سيحيق به من النوائب فى اهله ونفسه يجنى على ذاته جنايات لا تغتفر : (أولا) لانه بعدم تقوية ايمانه يحرم نفسه من لذة الايمان فان له لذة فى القلب لا يعلم قدرها الا المؤمنون حقاً الذين قال قائلهم : نحن فى لذة لو علمت بها الملوك لقاتلونا عليها بالسلاح . (ثانياً) لان بحثه على السعادة من غير طريقها يرمي به الى متاهة المحظورات الانسانية القاتلة التي تهلكه وتهلك الكثيرين معه كما هو مشاهد من عشاق السعادة وطلاب الراحة من غير طريقها . هذا بخلاف حالة المؤمن فانه لما ادرك أن لا شيء فى الوجود بغير حكمة وان لكل عمل نتيجة ورأى نفسه يشعر ويتألم ويفتكر فى المعضلات ويصل الى حلها وهو كل يوم فى رقي مستمر لم ينهزم امام مايؤوله من حالات الحياة التى تتوالى عليه ولم يفر من وجه الملمات التى تخزه من كل جانب بل وقف وقفة الثابت الجليد وألقى على نفسه هذه الاسئلة : ما ذا أنا . ومن اين اتيت . والى اين اذهب ؟ ما هى الحياة . وما هو الموت . ولماذا سلطت علىّ هذه المؤلمات ؟ ما هو هذا الوجود . وما هي علاقتى به ؟ هذه الاسئلة وضعها المؤمن نصب عينه واشتغل بحلها لعلمه ان حياته مرتبطة بها فتجلت له على حقيقتها وازدادت نتائجها فى فؤاده رسوخاً تارة بالعلم الذى تهديه اليه مشاعره الظاهرة وطوراً بما ينبع في صميم معناه من الالهام الصحيح . فاستوى بشراً سوياً يعرف قيمة الحياة ومزية الوجود وعاش حاصلا على احسن ما قدر للانسان من سعادة دنيوية .

اذا كان الايمان كما ذكرنا روح الحياة الطيبة ورسول السكينة والطمأنينة الى الارواح والمعزي الاول للانسان على ما يصيبه من مضانك العيش وهمومه . فما السبيل الى ايجاده في فؤاد الانسان واسكانه فى المكانة التى تليق به من صميم الذات البشرية ؟ كيف السبيل الى هذا في عصر كثرت فيه الشبه والشكوك وطمت فيه الاشكالات من كل نوع

وظهر فيه رجال ادعوا انهم نسفوا اساطين العقائد وحدموا اراكينها الثابتة وسمحوا لانفسهم بأن يكونوا نذراء اليأس ورسل الظلمات والغياهب الى الافئدة البشرية الضعيفة بما كتبوه في كتبهم السافلة ونشروه بين الخاصة والعامة ؟ لاجل ان يسمى الايمان ايماناً يجب ان يكون بعيداً عن مظان الشكوك والريب متعالياً عن متناول الاعتراضات والشبه فكيف السبيل الى ذلك الايمان الثابت والناس يسمعون ان العلامة فلاناً ملحد والفيلسوف فلان لا يصدق بشيء ؟

نقول : السبيل الى ايجاد ذلك الايمان الذى لا يزول ولا يتزعزع خصوصاً بالنسبة للمسلم صاحب الدين الفطرى هو ان يعلم ما هو الالحاد فى ذاته وما هي المقتضيات التى استلزمته . ثم ما هى العلاقة الموجودة بين العلم والايمان وهل احدهما ينفى الآخر أو هما توأمان متلازمان او هما شيء واحد يعبر عنه لفظان مختلفان ؟ ثم يقف على الشبه التى يلقيها الماديون الى اصحاب الاديان ليرى رأيه فيها . نحن اذا سلكنا بالقارئ هذا الطريق تجلى له ثلاثة امور مهمة واتضحت له صحتها بالبرهان الحسى الذى لا مرية فيه وهي : (أولاً) لا ملحد في النوع الانسانى فى الحقيقة ونفس الامر وان غاية المسئلة هي تحاور فى الالفاظ وتناقش في التعبيرات . (ثانياً) ان العلم هو الباعث الاول للاعتقاد والايمان واكبر سائق اليه وان الانسان كلما ازداد علماً ازداد يقيناً . (ثالثاً) ان الغاية التى وصل اليها النوع الانسانى من الايمان هى ما قرره الاسلام من عقيدة التوحيد والتنزيه لانها عين ما هى عليه الفطرة الانسانية . (رابعاً) ان الشبه والشكوك ما تولدت ولا تتولد الا من حيدان الانسان عن دينه الفطرى الذى هو الاسلام . (خامساً) ان زمان الالحاد (او سوء التفاهم) قد انصرم وانقضى وانا في عصر اصبح (الايمان) فيه على رغم الانف بمعنى انه اصبح بعيداً عن الشبه والشكوك بما فتح الله تعالى على ابنائه من البراهين المحسوسة . لنبدأ الآن فيما تصديناه له بتفصيل شاف ولننقل كل ما يقوله الملحدون لنحاكمها امام العلم والعقل والطبيعة لنصل الى الغاية التى رسمناها لانفسنا والله المستعان .

﴿ الايمان فى خلال القرون ﴾

مرّ الانسان من حيث الايمان على ثلاثة ادوار مهمة لكل منها مميزات ولوازم خاصة به . أما الدور الاول فهو دور الفطرة الاولى حيث كان الانسان مؤمناً ايماناً فطرياً مسوقاً الى الاخبات والخضوع للخالق بغير سائق ولا دافع غير احساساته الداخلية وعوامله الباطنية لشعوره شعوراً ضرورياً بالاحتياج لذلك ولم يك يفترق هذا الاحتياج فيه عن احتياجه الى المأكل والمشرب من حيث الاهتمام به والجري وراء مطلوبه منه .

يمتاز هذا الدور بتنزهه عن الشبهات والشكوك فلم يك يعرف انسان ذلك الزمان ما هو التردد في اصل الايمان وما هي الحيرة فى صحة العقيدة او عدمها وسيمر بك ان شاء الله ان سبب ذلك كان وقوفهم عند دين الفطرة البسيط المبرأ من شوائب الظنون والاقاويل . هذا الدور يبتدئ من مبدأ الخليقة الى قبل بعثة المسيح ببضعة قرون لا يمكن تحديدها بالضبط .

أما الدور الثانى فهو دور الفلسفة والحكمة وفيه فتقت انوار العقل حجب الكثافات الطبيعية واخذ الفكر يجول فى موامي التصورات السامية والمدركات العالية ويسبر مساتير المجاهيل الوجودية ليحيط بما خبأته عنه يد القدر من عالم الشهادة وعوالم الغيوب .

يعرف هذا الدور بتولد الشكوك فيه وسريان شياطين الشبهات الى العقول من بعض الافراد ضد بعض الاصول الاعتقادية . وكان ثوران تلك الشبه كنتيجة طبيعية ضرورية لان العقل الانسانى لما اراد ان يتفصى من اصفاد هذه الطبيعة الكثيفة ومال لأن يفتق تلك الحجب التى تمنعه من متابعة شهواته في النفوذ الى سرائر الموجودات الكونية استلزمت تلك الدفعة ان يطوف من المدركات على مايلائم درجته من الرقي فكان الخيال قائده فى تلك الرحل الفكرية وناهيك بعقل يرشده الخيال وتقوده احساساته البشرية الملازمة لتركيبه . لا جرم انه لا ينال من الحقيقة المطلقة الا ما يناسب درجته المقيدة فكان من الضرورى ان يهب عليه ما يتلتل به عن الوقوف فى مركزه وتضيع به لأن

يشرئب الى ما فوق ذلك ليعلم ان الحقيقة ابعد مما كان يتوهمه . لذلك بعث الله تعالى عليه روحاً دافعة ظهرت بمظهر الشبهات والشكوك لتسوقه رغم انفه الى غاية ما يمكن ادراكه من معنى اللاهوت الاقدس .

من هنا نشبت الحرب العوان بين الفلاسفة ورؤساء الاديان وحمي الوطيس فيها لحد انها كانت الشغل الشاغل لكبار العقول فى الامم حتى صار علم اللاهوت عبارة عن جدل وحل شبه .

أما الدور الثالث فهو دور العلم الطبيعي والفلسفة الجسية ويبتدئ من حوالى القرن السادس عشر لغاية النصف الاول من القرن التاسع عشر . فى هذا الدور استطار لهب الحرب الدينية العلمية بين قادة العلوم الطبيعية وحملة النصوص الاعتقادية وتحقق الفوز للحزب الاول وكان ذلك رد فعل وقتى لما كان قد حصل من غلواء انصار الحزب الثاني فى الابعاد عن العلم والتنبيه بمجافاة العقل وما يثيره الفكر . ولقد بلغ عدم الاهتمام بالدين عند بني هذا الدور بحيث عدت التعاليم الالحادية من الافكار الواجبة الاعتبار والاحترام الجائرة السريان بين العوام رغم انف حملة الدين ومؤيديه .

أما الدور الرابع فهو دور الفطرة وهو الدور الذى نحن فيه ويمتاز بمحاولة النوع الانسانى فيه الرجوع الى دينه الفطرى البعيد عن مظان الشبه المنزه عن مثارات الشكوك . لهذه الادوار الاربعة تفصيل لابد من الالمام به . فنقول :

﴿ الدور الاول ﴾

« دور الفطرة »

اختلف العلماء الباحثون فى اصول الاديان في اول معبود عبده الانسان فى اول نشأته فذهب الماديون منهم الى انه عبد الاصنام مباشرة على ادنى اشكالها ثم اخذ فى الترقي فيها شيئاً فشيئاً على قدر رقيه العقلى والفكرى ولم يزل يتنقل من دور الى دور حتى وصل من فكرة اللاهوت الى مثل ما وصل اليه (باسكال) و (جول سيمون) و (رينان) واضرابهم من التنزيه المطلق والتوحيد الخالص . ولم يحد بهؤلاء الماديين

الى مثل هذا التطوح الا وقوفهم مع الحس المجرد وزعمهم انه لا سبيل لسائر المعقولات الانسانية غير الحواس الخمسة . ومال الروحيون من الفلاسفة (١) الى ان الانسان عبد الخالق الاقدس على اكمل صورة من صور التنزيه والتوحيد واما عبادة الاوثان فهي عرض طارئ اقتضاه ميل الانسان الى تحديد كل ما يحس به احساساً مبهماً . فيكون مجمل هذه النظرية ان الانسان فطر على الدين الحق وحمله معه كلازم من لوازم روحه ثم لما مال الى عالم المحسوسات اراد ان يحدد ذلك الشعور فيه فوقع في اوهاق الوثنية على اختلاف اشكالها وكان من امره في ذلك ما ترويه لنا فلسفة الأديان من التدافع الذي سيمر بك طرف منه .

اما النظرية الاولى وهي نظرية الماديين فقد سقطت الآن الى الحضيض وتبين فسادها بما اكتشفه العلماء البحاثون في اصول الأديان ومناشىء العقائد قال الفيلسوف الشهير (جيو) في كتابه المسمى (عدم تدين المستقبل) : « ان نظرية الفلاسفة الحسيين بالنسبة للأديان كان يتوقع سيادتها المطلقة منذ بضع سنين وقد كان اعتنقها الكثيرون بدون ان يستنتجوا منها سائر نتائجه الضرورية . اما الآن فقد اصبحت واهنة واهية . »

وقد تصدى اكبر عمراني العصر (هربرت سبنسر) لهذه النظرية في كتابه « الأصول الأولية » فدحضها دحضاً واظهر فسادها بواسطة التحليل العلمي الدقيق . اما النظرية الثانية فهي السائدة اليوم لانها ليست من باب الفروض الظنية بل مما يمكن تحققه بالاختبار اذا صعد الانسان بمنطاد بحثه الى مناشىء العقائد في الانسان وهذا الامر مهما كان صعباً فان وراءه رجالاً يهتمون به غاية الاهتمام ويبذلون في سبيل استكناه لبه كل مرتخص وغال . واحسن من تصدى لهذا الموضوع الجليل فاجاد وافاد هو الاستاذ الطائر الصيت (ماكس مولار) الامريكي فانه كتب فيه كتاباً جليلاً سماه « اصل الدين وارتقاؤه » اثبت فيه بالنصوص الدينية الهندية وهي ابعد الديانات عهداً واقدمهن تاريخاً بأن الانسان اول ما عبد عبد الخالق جلّ وعلا على صفته الغير محدودة واما هذه الأوثان والاصنام فليست الا بنات الخيال استدعاها محبة الانسان للمس كل ما

(١) نعني بالروحيين الذين يعتقدون ان العالم مركب من طبيعتين طبيعة مادية هي هذا العالم المشهود وطبيعة روحانية هي عوالم ما وراء المادة .

يشعر به فى نفسه قال : « ان هذه الآلهة المجسمة ليست الا تمثيلاً طرأ على الانسان بعد تلك الفكرة الطبيعية وبناء على هذا فقد ركع آباؤنا وسجدوا امام الله الحق حتى قبل ان يجسروا على الاشارة اليه باسمه . » ثم جزم هذا المؤلف بأن اصل الأديان كلها واحد وما سبب اختلافها الا ما احدثته النزغات الانسانية والاهواء النفسانية من حب التحديد والتقييد والحصر .

هذا كلام لم يجاف العقل ولا النقل . اما قول الماديين السابق فلا ينطبق على علم ثابت ولا يستطاع ان يقام عليه دليل . وليس هذا الشطط ببعيد عنهم فانهم متى رأوا حرج مركزهم حيال مسألة من المسائل اعتادوا التعسف فى التفلسف وملأوا الارض احتمالات وفروضاً ولو كان اعرق فى السفسطة والهذيان مما تعالوا عن قبوله مبدئياً . سلهم قائلاً : هل يعقل ان الانسان يعبد شيئاً مجسماً قبل ان تكون تلك العبادة مسبوقة بفكرة دعت اليها ؟ هل يتصور ان الانسان بمجرد خروجه من عالم الغيب اكب يعبد الحجارة والجبال والاودية والاشجار بدون ان يكون له شعور مبهم سابق على ذلك التحديد ؟ لا يتصور ذلك بوجه من الوجوه . اذن فاول عبادة عبدها الانسان كانت روحية قلبية على صفتها الصحيحة وموجهة للخالق الاقدس المنزه عن الحدود والقيود .

يقول الماديون مما يدل على ان اباءنا الاولين كانوا محددين مجسمين لا مطلقين منزهين ان لغتهم خالية مما يدل على الاطلاق وعدم الحد فلا تجد فيها لفظة (لا نهاية). نقول ان خلو اللغة منها لايدل على عدم وجود معناه . على انها فى كل لغات العالم مركبة من كلمتين يمكن تكوينهما حالا فى اثناء المخاطب كقولنا : لا نهاية . او لا حد . او لا غاية . او لا آخر وهكذا . ومع ذلك فان اللغات القديمة قاصرة عن اشياء كثيرة حتى في المحسوسات فلم يوجد في واحدة منها الاشارة الى تدرج الالوان وتداخلها في بعضها بدون شعور وليس في اغلبها الا اربعة الوان فقط الاسود والابيض والاحمر والاصفر فهل يصح ان يقال انهم كانوا لايعرفون الزرقة من الالوان والسماء فوق رؤوسهم تتألق في حلتها النضراء . على ان فكرة (اللانهاية) يميل اليها المتوحش اكثر من المتمدن . ألست ترى ان الجاهل من الناس اذا اراد ان يصف لك عظم بلدة من البلاد لم يجد في فكره من اوصاف

المبالغة ماهو اقرب من قوله : تلك بلدة ماظما اول ولا آخر . وهذا الاستعمال يشاهد عند الجهلاء والمتوحشين اكثر ممن عداهم . اذن فنظرية المادبين قاصرة ولم يحد بهم الى اعتناقها الا اصولهم القاضية عليهم بعزو جميع المدركات الى الحواس الخمس وما اضيق هذا المجال واحرجه ؟

لايجدر بنا ان نختم هذا الفصل حتى ننبه ان فيه معجزتين عظيمتين تعدان من اكبر المعجزات لسيد الوجود صلى الله عليه وسلم ومن اوضح دلائل نبوته العامة لمن كان له قلب يذوق العلم ووجدان يحس بالحقيقة . (اولاهما) ان قول الاستاذ (ماكس موللر) ان الانسان مفطور على (الدين الحق) لاتعد منه الا ترديداً لمعنى هذه الآية الكريمة التي انزلت على سيد الوجود قبل ميلاد (موللر) بثلاثة عشر قرن تقريباً وهي : « فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون . » وقد رأيت انها لم يتحدث بها في العالم العلمي الاوربي الا في القرن التاسع ولم يذعها الا كتاب الاستاذ (ماكس موللر) في سنة ١٨٧٩ (ثانيتهما) ان فلسفة الأديان أرتنا كما نقلناه عن الاستاذ الموما اليه ان اصل الاديان كلها واحد وان ما احس وعمل به الانسان الاول من الدين هو بعينه مايحس ويعمل به اكبر انسان في العصر الحالي . ولا تغرنا الالفاظ المفوفة والعبارات المزخرفة والاساجيع المنمقة فانها كلها تعبير لما في الوجدان وليس وجدان الجاهل باقل شعوراً بها من وجدان اكبر فيلسوف . وهذه ايضاً فكرة جديدة جداً سبقهم القرآن الكريم اليها وقال صريحاً بان اصل كل الاديان واحد وهو الامر بعبادة الله الواحد .

﴿ الدور الثاني ﴾

« دور الفلسفة »

كان الانسان في دوره الاول مطبوعاً على الايمان كما اثبتنا ذلك في الفصل المتقدم فلم يكن للشبهات والشكوك سلطان عليه وكيف يشك الانسان فيما يحس به في ذاته ويشعر بالدافع له اليه ؟ ولكن لما ابتدأت خصيصة التعقل تسوق الانسان الى التملي بمجالي هذه

الطبيعة الباهرة وتبعثه للحكم عليها بقدرما وهب من القوة المميزة اخذ قبل كل شيء يبحث في موضوع عبوديته واخباته وطفق يسمو بروحانيته ليدرك ذات المتصرف المطلق في هذا الكون العجيب فجال في هذا المبحث العظيم جولة الطفل تشغله ملهيات الظواهر عن حقائق البواطن وتستوقفه بهارج الاعراض عن النفوذ الى الجواهر وناهيك بعقل البسطاء من سكان الكهوف والمغاور فهب يشخص الهه على مقتضى حواسه الشخصية وخصائصه الذاتية ثم اخرج تلك الصورة من حيز الخيال الى حيز الظهور فاصطنع الأصنام والتماثيل وملأ بها الهياكل والمعابد وكلف نفسه تقديم الهدايا والذبائح اليها واقامة الحفلات والولائم لها وصار يرقى معبوده في الشكل والخصائص كلما ارتقى درجة في التصور حتى انتهى حالها من جمال الصنع ورشاقة الوضع الى ما وصلت عند قدماء اليونانيين والرومانيين . في هذا الدور دور الخيال والتعقل كان الله تعالى يرسل رسله تترى الى الامم بالعقيدة النقية الخالصة من قذر الظنون وكدر الخيالات ليخلع الناس ذلك النير الثقيل الذى ألبسوه انفسهم فما كان يهتدي منهم الا الذين استعدت افئدتهم لقبول ذلك النور وقليل ما هم بين تلك الامم الطفلة .

عرف الانسان في كل زمان ومكان بشدة الكلف بدينه وعظم التمسك بمعتقداته فكان يدافع عنها دفاع المستميت اليائس وينتصر لها انتصار المهضوم حقه المصاب في عرضه ولا يتأخر من الحاق الضرر بالساعين في تهذيبه حتى قتل بهذه الحجة الوفاً من الانبياء ومئات من الحكماء واصحاب البصر وعد قتلهم نصرة للدين الحق على الاباطيل . ظل الانسان ينسج على هذا المنوال العدائى ضد عقلاء افراده حتى تفجرت ينابيع الحكمة في باحات القلوب ولطفت احساسات الناس نوعاً بواسطة تلك العوامل التى خلقها الله تعالى لايقاظ هذا النوع فتبين لهم (١) ان الوثنية عبء ثقيل على المدارك واتضح لهم انها بنت الخيال ونبت الضلال فأفردوا للكون الهاً واحداً وعزوا اليه من الاوصاف منتهى ماوصلت اليه مداركهم .

هذا الرقى التدريجى فى الدين يشاهد باجلى مظاهره عند براهمة الهنود ليس فى

(١) نحن لانريد عموم النوع الانسانى وانما نريد ارقى الامم منه فانه يوجد في كل عصر امة يتركز فيها مبلغ الرقى الانسانى كله .

المجتمع فقط بل فى العائلة الواحدة . روى الاستاذ (ماكس موللر) الموما اليه فى نفس كتابه المتقدم ذكره ان البراهمة قد وصلوا من حرية الاعتقاد الى حد انهم يتركون كلا يعبد ما يوصله اليه عقله فترى الاب الهرم فى عائلته العديدة الافراد ربما وصل الى اعلى مقام من التنزيه والتوحيد ولكنك ترى ابنه امامه يضحي الضحايا لصنمه المعبود وعن يمينه ابنه الثانى يرتل الاشعار الخيالية فى مناقب الآلهة المختلفة . يرى كل هذا ولا يتأثر له تاركاً لعقله حق التصرف فى ايصاله الى نقاء العقيدة .

فى هذا الدور كثر التجادل والتنابذ فى اصول العقائد وكان اختلاف الناس فى المدارك وتباينهم فى درجات التصور سبباً فى انفراج مدى المذاهب بينهم فأخذ كل فريق يجهد عقله ويعمل فكره على حتى الصفات التى يعزوها للخالق جل شأنه ويكلف نفسه الاتيان بمزاعم خصمه ويكر عليه بالحجج الداحضة حتى صارت كتب اللاهوت عبارة عن تحاور فى الالفاظ وتناقش فى الاصطلاحات مما يدل الرائى انه لا سبيل الى الوفاق ولا مساغ بطرد شيطان هذا الشقاق . وانى يستتب الوفاق بين احزاب جعل العقل المجرد متكأ للحكم على اصل الاصول وحقيقة الحقائق . لا جرم ان الخلاف يكون بينهم مستحكما والنفار سائداً على نسبة اختلاف البشر فى درجات العقول وتفاضلهم فى مواهب الفكر . ولما كانت سائر المعقولات قابلة الاخذ والرد وكان من اساليبها المعمول بها فرض الفروض التى لا تعقل وتكلف الرد عليها كانت الشكوك والشبه من لوازم هذا الدور بل من اخص مميزاته . لهذا وجدت بعض الافكار الحادة مجازاً الى الافراط والتفريط فتقمصوا لباس المشككين المرتابين وظهر فى كثير من الامم رجال جعلوا ديدنهم التشدق بنفى الصانع وبناء النظريات الفارغة على مجرد الوهم . وما المانع لهم عند ذلك مادامت المسئلة أصبحت فوضى وصار العالم الذى يشار اليه بالبنان هو الذرب اللسان الشديد المحاولة في كبح الخصوم واضحى العلم كل العلم هو دقة التعبير وابتكار ادق الاساليب لتكون بمعزل عن مماسك علم المنطق ؛ لا مانع من كل افراط وتفريط لصوغ النظريات ما دام السلطان المطلق للجدل العقلى ليس الا . من هنا ظهرت النظريات الالحادية ومال اليها بعض الفلاسفة فنشأت بينهم وبين الاعتقاديين حروب قلميه استحالت الى حروب دموية وليس هذا موضع التفصيل .

تفنن الاول فى ايجاد الشبه الدقيقة ومهروا فى صوغ العبارات الجدلية وهبوا ينسفون اراكين العقائد من اصولها ويذرون بناءها الشامخ فى عواصف الشكوك فلم يسع حفظة العقائد الا التأليب على دحض مفترياتهم وسحق نظرياتهم غير انه لم يمض الا قليل من الزمن حتى اصبحت الفرق المذهبية تعد بالمئات لا يجمعهم اصل ولا يضمهم فرع فركن حزب الدين بما له عند بعض الامم من نفوذ الكلمة والسيطرة على الهيئة الحاكمة الى استعمال القوة بعد ما اعلنوا ان البحث بالعقل فى اصول العقائد محظور ظناً منهم ان القوة تفعل ما لا يفعله الاقناع بالبرهان فقرروا من انواع العقوبات على المبتدعة ما ينفر منه طبع الانسان ثم اوغلوا فى تنفيذ قانونهم هذا بغاية الشدة والصرامة ومالأهم على ذلك اصحاب السطوة والسلطان وما علموا ان صرامة العقوبة لا تستطيع ان تقاوم السنن الطبيعية ولا ان تعكس سير الاقبال البشرية وانهم بذلك يزيدون الداء استعصاء والكلم انكاء واستشراء والنفوس جماحاً واباء . وفى الواقع رأيناهم كلما تشددوا فى التشفى والانتقام اشتد ساعد الالحاد واندلع لهبه بين الافراد حتى حدثت فى الأذهان ثورة فكرية تبعتها ثورة فعلية قلبت شكل الوجود رأساً على عقب وخلصت العقل من اوهاته الأولية وبسطت للعلم والفكر ميدان الحرية . هنالك ظهر من الافكار ما كان مستوراً مكنوناً وظهر على رؤوس الاشهاد ما كان سراً مصوناً ولعبت هزة التصر بالافكار المذبذبة دوراً مثلث فيه اقبح الأدوار الماليخولية على مراسح تلك الحرية العلمية . ومما زاد الطين بلة ظهور الفلسفة الحسية فصار من المقرر عند الاكثرين ان زمان الاعتقاد قد فات وانقضى وانه لا يمر بضعة اجيال حتى تتلاشى آثاره من العقول دفعة واحدة . هذا ما حصل فى دور الحرية العلمية الذى نريد ان نشبع الكلام فيه فنقول :

﴿ الدور الثالث ﴾

« دور العلم »

لم يمر على حفظة العقائد دوراً اشد هولاً من هذا الدور . على ان حدوثه مع ما فيه من افراط وتفريط وغلواء وسفسطة وعناد ومغالطة كان امراً منتظراً لا بل حادثاً

طبيعياً لأن كل الرذائل التي شوهت وجه هذا الدور كان لها مقدمات تقتضيها في الدور الذي سبقه فلم تكن لتوجد هذه لو لم تكن تلك .

ارتكب حملة بعض الكتب السماوية في الدور الفارط غلطات افراطية استدعت ما يقابلها من السفسطات التفريطية ليحصل التوازن بين الشقين المتنابذين ويؤوب الى الاعتدال من هدى الله من اصحاب الفطر السليمة . وهي سنة من سنن الخالق تشاهد في كل خطوة من خطوات الافراد والامم .

من تلك الغلطات الافراطية ضغطهم على حرية العقل والعلم واهتمامهم بحصر الافكار في دوائر ضيقة لا يمكن اجتيازها وزعمهم ان العقل عدو الدين ولا سبيل لفهم الدين بواسطة العقل . ومنها عدم اقرارهم بالعجز عن ادراك ذات الخالق وتشبيههم بوصفه بما يروق لعقولهم وترضاه لهم مداركهم وحمل الناس على اعتقاد ذلك والعمل به ومعاقبة كل من يناقشهم فيه . ومنها حسبانهم مسائل خلق الكون من الدين وتقدير الطبيعة بحسب افكارهم وتصرفواها وعجائبها على ما وصل اليهم من الاقاصيص القديمة الخرافية .

بلغ الغلو في حمل الناس على هذه الاغاليط الى حد انهم تربصوا لكل من يشمون فيه بارقة الحرية العقلية فنكلوا به شر تنكيل واذاقوه العذاب الوبيل فكم احرقوا من علماء وصلبوا من حكماء وسموا من نبلاء ازكياء حتى شوهوا وجه الدين وجعلوه عنوان العسف والاجحاف بعد ان كان رائد العدالة والانصاف . ولكن شهات ان يوقفوا سير ناموس الرقي الذي يدفع الانسان بمؤثراته وفواعله الغير محصورة الى اجتياز كل عقبة وتخطي كل مفازة للوصول الى قمة ما اعد للوصول اليه . فكانوا كلما اوغلوا في الظلم والضغط تنبه الناس بحكم الضرورة القاهرة الى تلمس المخلص من هذه السيطرة المخوفة المحفوفة بالمكاره وكلما نمى فيهم هذا الشعور بتوالي تلك الضربات القاسية وحميت حرارة الاسى في سويداء افئدتهم انفجرت ينابيع مواهبهم وملكاتهم واشرقت في صميم ذواتهم انوار مداركهم فشجعتهم على الثبات والمصاولة فصار اولئك الغلاة كلما صدوا لهؤلاء تياراً لاقاهم تيار اقوى منه سيراً حتى بلغ التدافع منتهاه وتكافأت القوتان وادرك اولئك المسيطرون ان حكم الله لا يرد ولا يستأنف فألانوا

الجانب وحاولوا ان يأخذوا باللين ما تعاصى عليهم بالقوة فاخفق مسعاهم ولم يلبثوا ان تحققوا ان خصومهم احاطوا بهم من كل جانب وساوروهم من كل صوب فلم يسعهم الا الصمت على مضض منتظرين ما يأتي به القدر .

هـذا ما كان من اولئك اما اصحابنا نصراء الحرية العقلية وزعماء العلوم الطبيعية والفلسفية فقد انتشوا بسلاف الانتصار وازدهتهم تلك الحرية المطلقة بعـد ذلك التقييد الجهنمي فجازوا تخوم الاعتدال . وبدلاً من ان يرجعوا الى انفسهم ويتحدوا على ما يجب الاعتماد عليه من اصول العقائد ليحملوا العامة على تقاليدهم في مناهجهم استقل كل بنفسه ووقع في مثل ما كان يجاهد لازالته من الافراط والتفريط فمنهم من ترك المعتقدات وشأنها حقيقية كانت او باطلة واكب على درس المادة وحدها ومنهم من لم يقف عند هذا الحد بل تطوح الى نكران كل شيء لايقع تحت حسه . ومنهم من اطلق لنفسه عنان الحرية في الاعتقاد وكون لنفسه ديناً خاصاً بها وبقيت العامة بين هذه المذاهب المتشاكسة لاتدري اي الطرق اقوم ولا الركون الى اي حزب اسلم فأدتها تلك الحيرة الشديدة الى مجافاتها كلها دفعة واحدة وصاروا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء وثبتهم في موقفهم هذا تنازعهم في البقاء واستئثار الاغنياء لسائر اوقاتهم في الشغل بتعصباتهم الاشعبية فصار العامـل يصبح مشتغلا بجسمه ومخه حتى يمسي ثم يتقاضى اجره دريهمات معدودة ويذهب الى بيته فتنهال عليه وساوس الفقر والفاقة وسوء الحال فلا يجد مسلياً له من هذا الكد الواصب والهم الناصب غـير معاقرة بنت الحان فيصرف عليها ثاني اجرته ويترك اولاده يموتون جوعاً (١) .

هذه الحالة التعيسة تسبب عنها انتشار جملة احزاب وجمعيات مدمرة شريرة لا هم لها الا تغيير النظامات وتبديل الاحكام وابادة الحكام واصحاب الحطام . قالوا ما بالنا احط رتبة من الحيوانات في نظاماتنا الاجتماعية واقل تمتعاً منها بمزايا الحرية الطبيعية ؟ ما هي تلك القوانين المسطورة في بطون الاوراق وما هي تلك الفئات التي تدعى لنفسها حق الاشراف والسيطرة على اميال الشعوب ؟ ما معنى رجل يتبختر في الاستبرق والحرير

(١) انظر مجلة المجلات الفرنساوية مجلد ١٧

ويتهادى بين الحياض والازاهير وامامه رجل ليس له من حق الوجود غير استنشاق الهواء وتوقع الفناء تحت كلاكل الضراعة والضراء ؟ كلا . ان العدالة كل العدالة هي ترك الانسان وشأنه تحت رحمة قانون التغالب حتى لايفوز براحة الوجود الا من وهبته الطبيعة قوة الغلبة في هذا المعترك المشهود . وعلى هذا فمن الواجب تضحية كل مرتخص وغال في سبيل الوصول الى هذه الرغيبة السنية بكل الوسائل الامكانية . بالحيل والمخاتل . بالقنا والقنابل . بالمدى والمعابل . حتى يخلو الجو من هؤلاء المسيطرين ويجلى عن الوجود هذا الظلم المبين .

هذه فرقة من فرق كثيرة يعد افرادها بالملايين نشأوا تحت سماء تلك التعاليم الالحادية وازداد عددهم بمؤثرات تلك المدنيـة المادية حتى خشي على بناء المجتمعات المتمدنة ان يتصدع ان لم يتداركه الله بروح من عنده . كل هذه الزعازع والفتن ألفتت عقلاء الامم الى تشخيص هذا الداء وتلمس الدواء فرأوا والبرهان امامهم ان ميكروب هذا المرض هو فقدان الدين وخلو الفطر من انوار اليقـين فهبوا يستردون ذلك المفقود الغالي ويسترجعون ذلك الاكسير الثـاني ولكن بأي الوسائل ؟ اخذت تعاليم الفلسفة الحسية من العقول مأخذها ولم يعـد من الممكن ادهاشها بخيال ولا الهاؤها بزخرف مقال . اشعرت النفوس ان رضوخها لمحض الدليل العقلي تطوح بذاتها الى مثل ما كانت عليه في الماضي واتضح بطلانه في الحاضر وعلمت ان ارتكانها على معقول لايسنده من جانب الحس دعامة قوية لا يسلم من شوب المسائل الوهمية . فهبت تسترد اصول العقائد ولكن بنور العرفان وتسترجع مفقود اليقين ولكن بألسنة البرهان .

هذا اجمال لابد له من تفصيل فللشرع الآن في سرد اهم شبه الملاحدة ونرد عليها من معناها فنقول :

﴿ شبه الملاحدة من المـاديين ووجه فسادها ﴾

كنت وانا مشغول بالعلوم التحضيرية عن الخوض في المسائل الفلسفية اعجب من وجود عاقل ينكر وجود الخالق لاني كلمـا كنت اجيل هذه المسألة في فكري واحاول

ان اجد للملحدة مجازاً الى هذه الفرية المخزية ومساغاً الى التفوه بهذه الاضلولة القبيحة ارجع بخفي حنين واكاد اتميز غيظاً من اولئك الذين يسمحون لانفسهم بالتلفظ بشيء لا يجد العقل طريقاً الى قبوله . الا اني لما كنت اسمعه عنهم من بسطة العلم والملكات العالية كنت اعجب غاية العجب ولو لم أر للالحاد من سبب . وكنت اود لو اقف على براهينهم وادلتهم لا تشككاً مني في معتقدي . معاذ الله . ولكن لابلاغ عقلي شهوته من هذه الافكار العجيبة . فلما اتاح الله تعالى لي حظ الاشراف على دقائق الفلسفة العصرية وانالني حظوة الاطلاع على تلك المباحث الالحادية رأيت ان استشكالاتهم وادلتهم (ان كان يمكن ان يسمى كلامهم ادلة) نوعاً من الجنون العلمي والهوس الفلسفي لايكاد الانسان يلم بها حتى يخر ساجداً لله تعالى يدعوه ان يحميه من شر هذه المالیخوليا المضحكة المبكية .

ولما كنت اعلم ان كثيراً من الشرقيين لم يزالوا يتوهمون ان لاولئك الملحدين براهين قوية وحجج متينة علمية تعوز الجد في دحضها رأيت ان اسردها عليهم في هذه العجالة ليتحققوا انها سفسطة فارغة لايقبلها عقل ولا يؤيدها لهم علم وانهم قوم شذوا عن الفطرة البشرية لمرض حل بجوهرهم الانساني ليس الا . وهذا احسن ما اعلل به حالة الملحدين وسيعذرني القراء على هذا التعليل بعد ما يقفون على مبلغ اقاويلهم .

يزعم الملحدون ان المؤمنين بالخالق يزعمون انه في السماء يشبه الملوك في الارض وانه جالس على اريكة الجلال والعظمة يبرم اليوم ماعقده بالامس لشفاعة شفيع او لضراعة متوسل . وقد رسخ في اذهانهم ان هذه هي العقيدة العامة حتى وقعوا بواسطتها في كثير من الاغاليط التي يجب ان يجل عنها العقلاء . اليك مثالا لذلك : لما كتب العلامة الشهير (اوستيد) قوله : « ان الكون محكوم (بحكمة ازلية) تظهر لنا اناعيلها بواسطة القوانين الثابتة في الطبيعة . » لم يرق ذلك في اعين الملحدة ومنهم الدكتور (بوشنر)) بسبب تلك التهمة الباطلة التي تخيلوها في المؤمنين فقال : « لا يمكن ان يتصور احد ان تحد حكمة ازلية مع نواميس طبيعية ثابتة . فأما ان تكون النواميس هي الحاكمة واما أن تكون الحاكمة هي تلك الحكمة الازلية . فاذا كانت الحكمة الازلية هي الحاكمة فلا لزوم لقوانين الطبيعة واذا كان الامر بالعكس وكانت النواميس الطبيعية هي الحاكمة فان ذلك ينفي كل تداخل سماوي . »

اما والعلم ان هذا الاستشكال عجيب صدوره من عاقل عنده قليل من الروية ! هل يغيب عن مثل (بوشنر) ان يفتكران هذه القوانين الطبيعية التي يسميها نواميس طبيعية ليست هي الا آثار تلك الحكمة الازلية الفاعلة في اجزاء الوجود وليست هي في ذاتها اشياء مستقلة ؟

ولكن سبحانك اللهم ما اجل سلطانك ! ان بوشنر هذا قد عارض نفسه بنفسه واقام الدليل على فساد استشكاله وهو لا يشعر . وذلك انه لما انتشرت الكوليرا في بلاد الانجليز واخذت تفتك بالناس فتكا ذريعاً طلبت هيئة (الاكليروس) الانجليزي من اللورد (بالمرستون) وزير الدولة ان يصدر امراً يأمر الناس به بصيام يوم والضراعة لله فيه بازالة الكوليرا . فاجابه اللورد بأن ملاشاة الكوليرا لا تتأتى الا باتخاذ الوسائط الصحية ولا دخل للدعاء والعبادة في مثل هذا الحادث . فدحه الاستاذ (بوشنر) هذا واثنى عليه وقال من مقالة كتبها : « كيف يعقل ان المشرع الاقدس يخالف ما وضعه من النواميس والقوانين الثابتة بدعوات الداعين وبكاء الباكين . » انظر كيف ناقض نفسه بنفسه لانه قال في رده على الاستاذ (ارستيد) انه لا يمكن تصور وجود نواميس ثابتة متحدة مع حكمة ازلية وهنا يستبعد ان الخالق الاقدس يعارض سير النواميس التي وضعها بنفسه وحكم بها مخلوقاته . هنا ربما يقول القارىء ان هذا ليس بدليل على نفي الخالق ولا استشكال يليق ان يلتفت اليه . نقول ان اردت مطالعة شبه الملحدة واستشكالاتهم فوطن نفسك على صرف ساعة من زمنك في مطالعة امثالها في هذه الوريقات واصبر لحكم ربك ولا تتصور انك ستمر بشيء ينفعل له فؤادك ويهم فكرك لمحاربته . نعم سيمر بك ما تنفعل له على تحسينك الظن بهم وبسمو مداركهم قبل ان تقرأ خزعبلاتهم .

اليك ضلة ثانية ليست باقل استحقاقاً للازدراء من الاولى وهي زعمهم ان الخالق لاجل ان يكون موجوداً يجب ان يكون خارجاً عن الكون . اما نحن فلا ندري من اين اتاهم هذا الوجوب بل ولا كيف يتصورون ان السبب الاول للوجود يجب ان يكون خارجاً عنه . لا يجب على الانسان ان يحكم بانفصال شيء عن شيء او باتصال شيء بشيء الا بعد الملامه بشكل كل منهما وما يلابس صورتهما وذاتهما من صفات واعراض . فهل وقف هؤلاء على كنه الوجود المادي وكنه الذات الالهية حتى يسوغ لهم الجزم بانهما

منفصلان عن بعض ؟ يقول العلامة هودسن تتل : « كل ما في الوجود من اول ذرة الهباء الى عقل الانسان محكوم بقوانين ثابتة لا تتغير . وبناء عليه فلا صانع للوجود . » نقول : سبحان الله مقسم العقول وواهب المدارك ان هؤلاء بدل ان يتخذوا نظام الوجود والوئام السائد عليه والحكمة المستفاضة على كل ذرة من ذراته ادلة على وجود الخالق وبراهين على تنزهه عن العبث والخراف نراهم بالعكس يتخذونها حججا على نفيه . كأن حضراتهم يتوهمون ان الخالق لا يصح ان يكون شأنه الا كشأن الملوك المملوكين لاهوائهم الذين يبرمون اليوم ما نقضوه بالامس ويحلون في الغد ما عقدوه اليوم . ايهما ادعى للتصديق بوجود فاعل متمتع بارادة وحكمة واختيار . أأحجار تراكمت على بعضها جزافا بدون نظام ولا ترتيب ام احجار نحتت وصقلت ووضعت فوق بعضها على نظام هندسي متقن وصارت هرماً كأحد اهرام الجيزة ؟ اما على حسب عقول هؤلاء فيكون الادعى للتصديق بوجود الصانع المريد المختار هو الفرض الاول لا الثاني وهذا من الهوس بمكان . لعمري ان الانسان ليحار في امر هؤلاء الماديين ليأسه من التوفيق بين متعاكسات اقاويلهم ومتشاكسات اسولهم . وذلك انك بينما ترى ان افراداً منهم يؤكدون بأن الطبيعة قد تكونت على ابعد ما يتصور من نظام وتدبير وانها محكومة بقوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل وهي من الحكمة بحيث تضمحل عزائم الفكر الطموح دون النفوذ الى استقرائها ويستنتجون من هذا النظام والابداع عدم الحاجة لصانع مختار متصرف ترى فريقاً آخر منهم يتهم بعض اجزاء الطبيعة بالخلل والتشوه وعدم الحكمة ويستدل من ذلك على نفي الصانع قال الاستاذ (جيبل) معترضاً : « ان الاستاذ (فوجت) شاهد وجود حيوانات خنثى لها اعضاء تناسل الجنسين معاً ومع ذلك فلا يستطيع الفرد منها ان يلقح نفسه بنفسه . فلأى فائدة وجد هذا التركيب ؟ ويوجد من الحيوانات انواع كثيرة الأخصاب لدرجة انها لو تركت وشأنها لملأت البحار في مدى سنين قليلة وغطت سطح الأرض بطبقة ارتفاعها كارتفاع البيوت . فلأى حكمة هذا التركيب ؟ » كل ذلك على زعم الاستاذ (جيبل) خلل في الخلق لا حكمة له . . . وكان يمكن على حسب هندسة حضرته . . . ان يكون الوجود بنظام ابدع من هذا بكثير بخ بخ . . . كيف ذلك يا ترى ؟ قال لأن « الطبيعة يمكنها ان تكون الجسم الانساني

بطريقة تنفذ منها القنابل بدون ان تحدث بها ضرراً ويقبل ضربات الصوارم بدون ان يجرح . »

فيالبت شعري ما هذا التناقض البين بين اقاويل زعماء هذا المذهب وماهي هذه الفوضى العلمية العجيبة ؟ ما الذي ينتظره الناس من رجال عموا عن بدائع هذا الوجود فقاموا يصمون هذا الجمال المطلق بوصمات لا وجود لها في الواقع غاية الامر انهم عجزوا عن ادراك سرها والوقوف على جلية امرها فهبوا يهرفون بما لا يعرفون . فلندع هؤلاء قليلا مع وسواسهم بفساد الطبيعة وعدم كمالها .. ولننظر الى الملامة (بوشنر) لنسأله عن سبب الحاده لنرى هل هو من هذا القبيل ام من قبيل آخر . قال حضرته في كتابه المسمى (المادة والقوة) : « لم يشاهد أبداً في أي مكان حتى في ابعد مدى من الفضاء الذي ندركه بالملكوب ظاهرة شاذة عن النظام تسوغ للانسان الاعتقاد بضرورة وجود قوة مطلقة ذات تأثير على الكائنات ومتميزة عنها . » نقول يا للعجب لقد بنى بوشنر الحاده على عكس ما بناه عليه الاول . فكيف اذن لايحار اللبيب في كيفية هدايتهم ! ان اثبت الانسان للبعض حسن اتساق الوجود واستلفتهم للابداع المستفاض على كل ذرة من ذراته والحكمة الشاملة لجميع مكوناته وارغمهم بذلك للاقرار بوجود الصانع صاح به بعض آخر من الذين يدعون ان كمال الوجود يقتضي نفي الخالق قائلين : نعم ان ذلك ليدل على عدم متصرف مختار لان هذا الثبات في الحكمة يدل على ذلك تمام الدلالة . كأنهم لايريدون ان يعتقدوا بمتصرف ما في شيء ما الا اذا كان يهدم اليوم ما بناه بالأمس وبالعكس . ثم ان التفت الانسان الى البعض الآخر وبرهن له ان التخالف الشديد الموجود بين الكائنات والتباين الهائل الكائن بينها يدل على وجود صانع متصرف مختار لا تحد قدرته ولا يستقصى ابداعه صاح بنا الفريق الأول وقال : « ماحكمة وجود الامراض والآلام ؟ ولماذا تعدو الطبيعة كل يوم وكل ساعة على المخلوقات بطرق لا تحصى من القسوة والشدة ؟ »

نقول صدق الله العظيم : « وكان الانسان اكثر شيء جدلا » . « ان الانسان لظلوم كفار » « ان الانسان خلق هلوعاً » « وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه » ألا ترى ان هذا الانسان بعد ان تذوق حلاوة الادراك وتنسم نسمات الحياة بواسطة انواع المصائب

والآلام التي حاقت به فخاصت سر الانسانية فيه من خبث الطبيعة العمياء الكثيفة كما يصهر الذهب عمداً ليتجرد عما علق به من قذر الارض قام يعترض على وجود الآلام والمصائب وهي مهذبه الاول ومرشده الذى عليه المعول . هذا الاستشكال لا يصح سوقه في سبيل نفي الصانع بل في سبيل السؤال عن حكمة خالق الكون على هذه الصورة . لانا لو رأينا فخاً منصوبا في بيداء يمسك كل طائر يقع عليه يمكننا ان نزعم ان ذلك العمل يعد اذى لا حكمة فيه ولكن لا يمكننا لمحض وجود ذلك الأذى فيه ان ندعي بانه وجد بغير صانع لان ذلك من سخافة العقل بحيث لا يرضاه الحيوان . بل يجب وجوباً حتماً ان نحكم اولا بوجود صانع نصبه وخصصه لتلك الوظيفة ثم لنا الحق بعد ذلك ان نسأل عن حكمة ايجاده على تلك الصورة بدون رعونة ولا غشمرة فلعل له عذراً وانت تلوم .

ان (جبيبل) وانصاره بدل ان يحمدوا الخالق على ان هداهم لادراك مايحتوشهم من النقص والحداج ووثقهم لان يروا ان هنالك كمالا لا نقص معه وسعادة لا يألم من وصل اليها فيشرأبوا اليها بأرواحهم ويتحسوا على طريقها بكل وسائلهم نراهم بالعكس قد قطعوا على انفسهم طرائق النجاة وزجوا بها فى تيه من اليأس ستسحقهم فيه طوارئه متحسرين مكبوتين رغم انفهم . ولكن اذا كان هؤلاء قد ادركوا نقصهم وسئموا الوجود على هذه الصورة فعاشوا عيشة ضنكاً وماتوا قانطين فان هنالك رجالاً ادركوا النقص مثلهم ولكنهم رأوا خلفه الكمال الذي خلقوا لأجله فسعوا اليه سعياً حثيثاً واخذوا يتقربون اليه شيئاً فشيئاً فهم يحيون حياة طيبة وسيموتون على درجة من الكمال يعرجون بها الى سبحات العوالم الاخرى فى كون تنتظرهم فيه السعادة التامة والنعيم المقيم .

عجيب امر هذا الانسان يدرك النقص ويقف عنده ولا يعلم ان وراءه كمالا محضاً يجب ان يسعى له ويضرب فى بيد العزائم ليصل اليه . الم تر ان (جبيبل) هذا قد ادرك الجمال الصرف والكمال المحض وهو حالة الملأ الاعلى فأراد ان يكون من اليائسين منه بدل المتقربين اليه ! سبحانك اللهم « فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . »

ان هؤلاء الذين يعترضون على مكونات الطبيعة قد استزلهم شيطان العناد والمجاحدة وهوى بهم الى اخس منزلة من منازل السخافة وهم لا يشعرون . على انى لا أدرى كيف يسوغون لانفسهم التظاهر بهذا الفكر التنازل وهم يعلمون مثل غيرهم ان العلم

فى تقدم مستمر وان الشيء الذى لا تظهر حكمته اليوم تبدو للناس في الغد . سل المتوحش عن حكمة هذه الجبال التى تناطح السحاب وتشوه وجه الارض فى الظاهر تجده لا يتمالك نفسه من ان يقر لك بانها عارية عن الحكمة وانه كان الاجدى والاجدر حذفها من على سطح الكرة . على ان هذا المسؤل الذى افتى عن جهل وغباوة لو علم ان الجبال مخازن للامطار وانها السبب الوحيد لدوام الانهار التى لو لم تكن لهلك الناس أجمعين ولم تكن الحياة على الارض ممكنة . قلنا لو علم ذلك الجاهل بهذه الحكمة لاستغفر الله على اعتراضه ولخجل من استعمال عقله القاصر فى غير ما وضع له . هؤلاء المنددون ببعض أشياء الطبيعة يشبهون ذلك المتوحش فى المثال المتقدم . نتراهم بدل تلمس الحكمة لما حسبوه تشويها يبادرون بالاعتراض على ما لم يحيطوا بعلمه . وهذا غاية الغباوة والجهالة . ولكن قاتل الله العناد فهو الذى اجبر هؤلاء على هذه السفسطة المضحكة المبكية . أفلم تكفهم هذه المبدعات المدهشة المحيطة بهم من كل جانب فيلتزموا الادب في انتقادهم على أشياء معدودة لم يدركوا حكمتها للآن ؟

بينما يصيح هؤلاء المتهورون بالتنديد على ما لم يصلوا الى ادراكه ترى اساتذتهم يسجدون امام العظمة الالهية مقرين بهذا الابداع الباهر معترفين بأن كل ما نالوه من العلم لا يعد بجانب ما ستر عنهم الا كقطرة من بحر او شعاع من شمس . قال الفيلسوف الشهير (اجوست سباتييه) في كتابه (فلسفة الاديان) : « ان العلماء هم اول المعترفين في كل فرع من فروع العلم بانهم لم ينالوا منه الا جزأ محدوداً وان اكثرهم تواضعاً هم اكثرهم علماً . على ان كلهم يعترفون بأن ماحصلوه للآن من الاكتشافات وما درسوه من هذا الجزء اليسير من الطبيعة ليس الا عدماً بالنسبة لما يجهلونه . فهم مستعدون لتنقيح القوانين التى قرروها وتوسيع الفروض التى فرضوها وضم كل ما يشاهدونه من المشاهدات الصحيحة الى ما لديهم منها . نعم انه يوجد من بين هذه المشاهدات ما يدهشهم ويشوش افكارهم (تأمل) كما نراه كل يوم ولكنك لو تلاحظ موقف العالم الحق امام هذه الظواهر الجديدة تره لا يشك فى كونها تابعة لنواميس مجهولة ولكنها حقيقية وموجودة وتره لا ييأس من امكان عزوها الى تلك القوانين وزيادة مواد العلم بها . لان نجاحه السابق يضمن له نجاحه في المستقبل وتراه يتتبع ابحاثه بدون تهور لانه لا يعرف الجبن الأدبى . »

بناء على هذا كله يجب ان تعد تلك النزغة من مداحر الماديين وعوراتهم فان الله اذا أراد ان يقضي على شرف رجل سلطه على ان يقول ما لا يعقل ويهرف بما لا يقبل . وعندى ان من يكلف نفسه بالاعتراض على بعض مكونات الكون بمحض عدم ادراكه لحكمتها لا يجوز ان يعد عاقلا فضلا عن اعتبار قوله . وقد كان يجب علينا ان لا نتكلف الرد على هؤلاء فى هذا الموضوع ولكنا خشينا ان يتهم الناس علماء الطبيعة بهذه السخائف فنكون قد جنينا عليهم وعلى العلم جناية كبرى .

دعنا من هذا كله وهلم بنا نأخذ المسالك على هؤلاء الماديين ونضيق الخناق عليهم بعد ان نحصرهم فى دائرة ضيقة لا يستطيعون عنها محيصاً فنقول : بأى حق ينكرون وجود الخالق وعلى اي دليل يعتمدون فى دعاويهم الطويلة العريضة ؟ أشهدوا خلق السموات والارض ورأوا باعينهم تلك النواميس الخالقة المبدعة وان المادة قديمة لا أول لها ؟ أم لديهم براهين وحجج يقبلها العقل السليم فى مثل هذا الموضوع الهائل ؟ لنسأل عن ذلك الاستاذ (ليتريه) نفسه لانه استاذ الفلاسفة الحسيين قال حضرته : « لما كنا نجهل اصول الكائنات ومصائرها فلا يليق بنا ان ننكر وجود شيء سابق عليها او لاحق لها كما لا يليق بنا ان نثبت ذلك . فالمذهب الحسى يتحفظ كل التحفظ فى مسألة وجود العقل الاول لاقراره بجهله المطلق فى هذا الشأن . كما ان العلوم الفرعية التي هي منابع للمذهب الحسى يلزمها ان تتحفظ من الحكم على اصول الاشياء ونهاياتها بمعنى اننا ان لم ننكر وجود الحكمة الالهية فلا نتعرض لاثباتها . فنحن على الحياد التام بين النفى والاثبات . » هذا قول استاذ الفلسفة الحسية ومنه يرى كل انسان ان ليس لدى القوم برهان على نفي الصانع وانهم ناس حبب اليهم عدم التداخل في هذه المسألة بالمرة او بعبارة اصرح هم ناس يريدون فى اثناء الحكم على الاشياء كما يقول الدكتور (روبينيه) فى كتابه « الفلسفة الحسية » : « ان يبعدوا كل تصور او توهم وان لا يعتمدوا الا على المشاهدة المحسوسة وان يحذفوا من اقاويلهم كل الفروض التى لا يمكن تحقيقها . »

نقول ان كان الامر كذلك فالخطب سهل جدا لان القوم اخذوا على انفسهم ان لا ينفوا شيئاً بدون برهان (محسوس) كما انهم لا يثبتونه الا كذلك ولكن ما قولك في كونهم كذبوا على الله وعلى الناس وخالفوا قانونهم بدون خجل وكان اول من خالفه واضعه !

فقد كتب الاستاذ (ليتريه) نفسه فى مقدمة كتاب (المذهب المادى) للمسيو (لابليه) هذه الجملة : « ان الطبيعى يعلم ان للمادة وزن كما ان الفزيولوجى يعلم (ان المادة العصبية تفتكر) بدون ان يدعي واحدمنهما معرفة كيف تزن المادة وكيف تفتكر الاعصاب . » فانظر كيف خالف قانونه بنفسه وزعم ان الاعصاب هى التى تفتكر ؟ هل لديه برهان محسوس على ان الاعصاب هي التى تفتكر ؟ اما كان يجب عليه ان يقر بالعجز امام هذه المسألة وهي اعوص المسائل الفلسفية ان كان يريد ان يتبع قانون الفلسفة الحسية ؟ أتريد دليلاً آخر على تفهم الاشياء بدون برهان محسوس . اليك ذلك من قول واضع قانون الفلسفة الحسية نفسه ؟ قال (ليتريه) أيضاً فى كتابه المسمى (كلمات من الفلسفة الحسية) : « يظهر لنا ان الاسباب التى اوجدت الكون هى ذاتية فيه غير متميزة عنه وهي التى نسميها نحن بالنواميس الطبيعية » انظر كيف ادعى بدون برهان محسوس ان الاسباب التى خلقت الكون هي نواميسه الطبيعية وانها فيه غير متميزة عنه !

على انا ندع الآن هذا كله ونرجوهم ان يجيبونا على هذه الاسئلة المهمة التى تطرأ على كل فكر وتشغل كل قلب وهي : كيف ان المادة وهى عمياء صماء استطاعت ان تتكون هذا التكون البديع وتشكل هذا الوجود الضخم على تنوع صوره وكائناته وتباين اشكاله وكيفياته ؟ انا نرى باعيننا ان المادة منقادة بواسطة قوانين ونواميس الى التشكل على حسب نسب وحدود معقولة فكيف نتصور ان شيئاً محروماً من نعمة الادراك والتعقل يتجه من نفسه الى غاية كمالية تندهش لها عقول البشر وتتبهر منها مدارك الفكر ؟ وكيف ان المادة المجردة من العقل والادراك تكون كائنات متمتعة بعقل وادراك كالانسان مثلاً ؟ وكيف ان المادة تحكم نفسها بنواميس حكيمة وهى لا تعرف معنى الحكمة ولا تحس بها ؟ وكيف يسود النظام والوئام بين مكوناتها وهى لا تعرف للنظام معنى ونحن نرى باعيننا رقياً محسوساً فى كائناتها : من جماد الى نبات الى حيوان الى انسان وكل هذه الممالك الاربع فى رقي مستمر الى غاية اسمى من ان تتصور ؟ كيف ان المادة العمياء الغير مدركة تتبع من نفسها خطة التدرج والترقي ؟ وكيف تخلق المادة هذه المبدعات فى عوالم الجمادات والنباتات والحيوانات وتهبها كل ما تحتاج اليه من حيل الحياة واسباب حفظ النوع واسباب البقاء والارتقاء حالة كون المادة لا تعى ولا تدرك ؟ وكيف ان المادة فى عمايتها وموتها

تتوصل الى خلق الحواس فى عالمي الانسان والحيوان بهذه الدقة والمهارة لاجل التعرف بالاشياء المحيطة بهما على اتم نظام وابدع ترتيب . ولما ذا كل هذه الحواس والاجهزة والاجزاء مركبة تركيباً يدهش العقل ويبهر الفكر ولم يوجد منها ما هو مختل الوظيفة او عبء ثقيل على صاحبه ؟ لما ذا لم تكن الطبيعة خلقاً مريعاً بدل هذا الابداع المحكم ؟

اذا القيت كل هذه الاسئلة على الماديين يشعرون فى انفسهم بما يستولى على متنفسهم ولكنهم لا يخجلون فيقولون : يحصل كل ذلك بواسطة الانتخاب الطبيعى . . . . . ما هو يا ترى ناموس الانتخاب الطبيعى ؟ يقولون معناه ان الطبيعة مدفوعة . . . . للرقى الدائم . . . ومنبعثة . . . . لان تنتخب الجيد الصالح وتترك الردىء الطالح وبذلك فهى تميل دائماً من كامل الى اكمل . . . . . دل هذا هو الجواب ايها العقلاء . أيليق ان تجيب على من يسألك : لماذا يسير الوابور ؟ بقولك . لانه مدفوع الى السير . . . ومنبعث الى قطع الصحارى والخلوات . . . هل يصح ان يكون هذا جواباً يصدر من عاقل يريد البحث عن الحقيقة ؟

ولكنا نسألهم : من هو الدافع للطبيعة الى الرقى والكمال ؟ وما هو الباعث لها على انتخاب الافضل والاصلح من الكائنات ؟ الا تقولون معنا ان ذلك الباعث هو يد القدرة الالهية المحيطة بكل شىء المهيمنة على كل شىء والمتصرفة فى كل شىء ؟ أليس هذا الاندفاع المشاهد من الطبيعة وتدرجها فى سبيل التحسن والكمال يعد دليلاً مشاهداً محسوساً لا يقبل النقض على وجود اله متصرف فى الاكوان يسيرها على حسب علمه وحكمته ؟

ناموس الانتخاب الطبيعي آخر ملجأ يلجأ اليه الماديون وهو كما رأيت اوضح ما يستدل به على وجود الخالق جل وعز . اذا امسكت واحداً منهم والجأته الى المناظرة ووصلته الى هذه النقطة والمحته هذا الالحام تراه قد امتقع لونه وزايله عقله وغلب عليه جهله وقال لك وهو مفحم مرتبك ما قاله الاستاذان (كرافت وستوف) : « لماذا لم تكتب هذه القوة الخالقة اسمها فى السماء بسطور من نار . »

انظر الى ادب هؤلاء الفلاسفة وتوقد ذكائهم ومبلغ استنكالاتهم ! رب ان الهدى هداك فلا تحملنا ما لا طاقة لنا به من مثل هذه الرعونات السفلية ولكن ما اشبه هؤلاء برجل رأى قصراً مشيداً قد انتهى اليه الابداع فى الصناعة فزعم انه تكون بنفسه بدون

ارادة مريد ولا اختيار مختار . فلما اعترض عليه فى ذلك وعد قوله مستهجناً لم يخجل بل صاح صياح الوقح المغفل قائلا : لو كان له صانع لكتب اسمه على سقفه باحرف من مصابيح . . . ! بخ بخ . اللهم ان كانت هذه نهاية الفلسفة فما ادنى تصور الانسان عن تصور الحيوان !

كان يجب علينا ان نقف فى هـذه النقطة فقد تصمنا ظهر الالحاد وتصمنا عروته ولكن من باب التفكهة نأتى على نظرياتهم فى اصول الانواع الارضية ثم نتبعها بنظرياتهم فى خلق الكون بدون صانع ليرى المطلع الى اى مطرح من مطارح السخافات وصلت فروض هؤلاء الغلاة نكالاً من الله .

اذا نظرت ساعة من الساعات الى الثلاث مواليد الطبيعية من جماد ونبات وحيوان وامررت فكرك فى كل مملكة من هذه الممالك مروراً علمياً ووقفت على بدائع صور اشخاصها واختلاف اشكال انواعها واجناسها ودقة تركيب اجزاء آحادها وافرادها . وتاقت نفسك بعد ذلك الى معرفة كيفية تكونها وتشكلها بواسطة الفواعل الطبيعية . . . . فاسأل حضرات الماديين وهم ينبؤنك بالخبر اليقين . . . . نعم انك ستضحك حتى تبدو نواجذك وربما صفقت بيديك طربا وما احسن العلم اذا كان بهذه الصورة المسلية . . . . ! انهم سيقولون لك : ان التخالف الشديد الذي تراه بين انواع الكائنات من اول الخلية البسيطة لغاية الانسان وهو قمة الابداع التكوينى (ارجوك ان تستحضر فى فكرك كلما قرأته او شاهدته من انواع النبات والحيوان) ليس بصعب التفسير ولا يعوز كثيراً من التعب . لانه لم يحصل الا بتأثير المكان والفواعل الطبيعية التى تسلطت عليه . يقولون انظر الى الظرافة مثلا فانك ان تعجبت من طول عنقها فما ذلك الا لان امهاتها الاولى ولدتها فى محلات لم يكن فيه ما تتغذى به من الاوراق الا على رؤوس الاشجار العالية فالتجأت هذه الكائنات المسكينة لان تشرئب باعناقها كلما وخزها الجوع بلسنته فأخذت اعناقها تطول تدريجا تدريجا حتى وصلت بحكم الضرورة (ماهى الضرورة ياترى) الى الدرجة نشاهدها الآن . وبناء على ذلك فالظرافة لم تعط تلك العنق الطويلة قصداً بل لانها احتاجت اليها لتقويم اود حياتها . ثم يقولون لك وان عجبت من خلقة اجنحة الطيور وراقك ما بها من نقش ورقش واندهشت من حسن الصناعة التى تكونت بها تلك الآلات

التى جعلتها ملكات الهواء فليس ذلك ايضا بصعب التأويل ونقول لك كما قلنا في الظرافة ان تلك الاجنحة لم تعط لها لكى تطير بها فى الهواء بل انها طارت لكونها ملكت اجنحة . فان قلت وكيف اتتها هذه الاجنحة ؟ قالوا لك ان اوائل انواعها بدأوا يقفزون قفزاً الى الجهة العليا ثم لما استمروا عليه بضعة ملايين سنة . . . . . نشأت لهم تلك الاجنحة فطاروا بها . . . .

اما ترى ايها القارىء اللبيب ان هذه سخافات عقلية وخزعبلات فكرية تشبه هوسات شراب الحشيش فى زوايا محلاتهم المظلمة ؟ فاذا كانت هذه النظرية السفلى ستفسر لنا اختلاف شكل الدودة عن شكل الفيل وشكل الدجاجة عن شكل الحصان فعلى العلم العفاء ويجب على كل مشتغل بالعلم ان يحرق مكتبته ويذريها فى الهواء ويجلس فى غرفته ويترك العنان لخيالاته ويفسر ابداع هذا الوجود المدهش على حسب عقله القاصر وفكره الضئيل . كلا . « ماشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً . »

فى منتصف القرن التاسع عشر الذى نحن فيه ظهرت نظرية جديدة فى اصول الانواع نأتى على ملخصها هنا من باب التفكهة ليتضح للناس اجمعين الى اى درك من السخافة يرمى الماديون بانفسهم نكالاً من الله . فانك بينما ترى هؤلاء يتبجحون زوراً وبهتاناً بانهم يتعالون عن قبول الظنون والفروض التى لم يقم عليها دليل محسوس ويتنزهون عن اعتقاد مالم تشهد به المشاعر خوفاً من الوقوع فى مخاتل الاغاليط تراهم (والله غالب على امره) اذا ارادوا تعليل خلق الوجود بدون صانع يلتجئون الى التعسف الشائن والتفلسف المضحك الذى لا يرضاه لنفسه ذو مسكة من عقل . وملخص تلك النظرية قولهم : ان البحر اصل كل الكائنات الارضية على اختلاف انواعها واجناسها . قالوا ان البحر قد عم سطح الكرة الارضية فى عصر من العصور الخالية وبهذه الواسطة انتقلت المخلوقات التى فيه الى الارض وعاشت فيها . وعلى هذا فكل ما يشاهد على الارض من احقر خلية نباتية بسيطة الى اكمل حيوان وهو الانسان اصله البحر اى انهم كانوا حيوانات بحرية . قال الاستاذ « مايه » : « لا يوجد فى الارض حيوان سواء كان ماشياً على قدميه او طائراً بجناحيه او سابحاً على بطنه الا وفي البحر انواع مشابهة له او قريبة

منه . وان انتقال هذه المخلوقات من عنصر الماء الى عنصر الهواء ليس بممكن فقط بل مثبت بجملة أمثلة ونحن هنا لا نريد ان نتكلم فقط على الحيوانات البرية البحرية او الثعابين والسلاحف وكلاب الماء والاجناس المختلفة من نوع كلاب البحر ولا على الحيوانات العديدة ان تعيش فى الماء والهواء على حدّ سواء او تارة فى البحر وتارة فى البر ولكننا سنتكلم على الحيوانات التى لا تستطيع ان تعيش الا فى الهواء . وذلك انا نعلم ان الحيوانات البحرية تنقسم الى قسمين : حيوانات سابحة في بطن الماء وعائمة فيه تسرح وتصطاد . وحيوانات اخرى تمشى على بطنها فى القاع ولا تنفصل عنه او تنفصل عنه نادراً ولا استعدادها للعوم . وبناء على هذا فمن الذى يستطيع ان يشك فى ان طيورنا التى تسبح فى الهواء لم تأت من نوع السمك الطيار ؟ او فى ان حيواناتنا الارضية التى لا استعداد لها على الطيران ولم تقدر على العلو عن سطح الارض لم تأت من تلك الحيوانات البحرية ؟ . » وان اردت ان تقتنع « لا سمح الله » بصحة هذه النظرية وسألتهم عن ذلك قالوا لك : يكفيك ان تختبر اشكال الحيوانات واستعداداتها وامياها سواء كانت برية او بحرية ثم تقارنها ببعضها . فابدأ بالطيور مثلاً ودقق في سائر انواعها وفي اختلافات ريشها ورقشها وامياها تجد انك لا تصادف نوعا منها الا وفى البحر نظيره . قال الاستاذ « تليامد » : « يوجد فى البحر اسماك تشبه اشكالها كل شكل من اشكال الحيوانات الارضية حتى العصافير . ويوجد فى البحر نباتات وازهار وبعض اثمار فالانجرة (نوع من النباتات) والورد والقرنفل والشمام والعنب لها في البحر امثال . » وان اندهشت من هذا الامر جداً واظهرت استبعادك لحصول الانتقال من البحر الى البر لتباين الطبيعتين واختلاف الوسطين . قالوا لك هون عليك واعلم ان هذا الانتقال لا يجافى العلوم الطبيعية فى شىء . فان الهواء الذي يحيط بالكرة الارضية يحتوى على كثير من الجزيئات المائية وليس الماء الا هواء فيه جزيئات مائية اكبر حجما واكثر رطوبة فهو اذن اثقل من هذا السيال العلوى الذى ألصقنا به اسم الهواء . اذن صار من السهل ان تتصور ان الحيوانات التى عاشت فى الماء الذى هو « هواء مشبع بالماء » ان تعيش كذلك في الهواء الغير مشبع بالماء . ويضيفون الى ذلك بأن للضرورة نفسها اليد الطولى في هذا الانتقال . فقد يحتمل ان طائفة من هذه الحيوانات كانت في قاع بحيرة من البحيرات فأخذ ماء هذه البحيرة يجف شيئاً فشيئاً فوجدت

هذه الكائنات نفسها مجبرة على المعيشة فى الجو الهوائى او يحتمل ان تكون قد حاولت القفز من تلك البحيرة الى البحر المجاور لها هرباً من حيوان مفترس فسقطت فى غابة او دغل من القصب فهمت بالرجوع الى مستقرها الاول فاجهدت نفسها فى القفز فلم تستطع ان تدركه ولكنها تحصلت بهذه المحاولة على خاصية الطيران . وفى هذه الحالة تشققت عواماتها من الجفاف الذى احدق بها لفقد الماء . ثم انها وجدت فى تلك الغابة مثلاً ما يغذيها من المواد فلم يقض عليها بل استمرت حية ولكن الانابيب المحركة لعواماتها انفصلت عن بعضها واستطالت واكتست ريشاً او بعبارة اوضح تحولت جدرانها التى كانت متلاصقة الى حالة اخرى ثم اكتست اجسامها بريش دقيق ملون بالوانها الاصلية فكبر هذا الريش شيئاً فشيئاً حتى استحال الى اجنحة . اما الاجنحة الصغيرة التى كانت تحت بطونها والتى كانت تساعدها على السباحة فى البحر فقد استحالت الى اقدام سمحت لها بالمشى على الارض . وحصل ايضاً بعض تغير زيادة عما سبق فى سائر اجسامها وبذلك ظهرت بهذا المظهر الذى نرى به الطيور قاطبة . اما من جهة الحيوانات السابحة على بطونها والماشية على الارض فان تصور وفهم الكيفية التى انتقلت بها من البحر الى البر سهل جداً . فانك ترى بعينك ان الثعابين والسلاحف تستطيع المعيشة فى كل من العنصرين على حد سواء . اما من جهة ذوات الاربع فانا لا نقول فقط ان في البحر ما يشابه سائر أنواعها جسماً وتركيباً بل نقول ان منها ما يستطيع المعيشة فى كلا العنصرين بغاية السهولة . اما ترى القردة البحرية وعظم الشبه الذى بينها وبين القردة البرية ؟ اما الاسد والحصان والبقر والخنزير والذئب والجمل والقط والكلب والمعزى والكبش فلها اشباه ونظائر فى البحر . » هذا هو مبلغ قدرة الملاحدة على صوغ النظريات في اصل الانواع وفى تعليل هذا الابداع الذى برز الى الوجود من العدم . يا سبحان الله ان رجلا ينكر الخالق الحكيم الذى لا يتصور العقل عدمه بحجة انه لم يره بعينيه الضئيلتين ثم يجشم نفسه مثل هذه السفاسف لجدير بأن لا يعد من افراد النوع الانسانى ولكي لا يظن ظان باننا تحاملنا عليهم وغلونا فى تشهير غلطاتهم يجب علينا ان نستشهد قادة العلم الفسيولوجى فى نظرياتهم هذه ليعلم الناس ان الماديين ليسوا من العلم بالمكان الذى يتوهمهم فيه بعض الشرقيين . قال الاستاذ الطائر الصيت اشهر علماء الفسيولوجيا (كوفييه) : « ان بعض

الطبيعيين من أصحاب الافكار المادية قد رضوا بان يكونوا النصراء الاذلاء لنظرية (مابيه) وذلك انهم لما رأوا ان كثرة استعمال عضو او اهماله يزيد او يقلل من قوته وحجمه توهموا ان العادات والمؤثرات الخارجية امكنها ان تغير تدريجا اشكال الحيوانات لدرجة انها اوصلتهم على التعاقب الى ما نراه الآن فى أنواعهم المختلفة . وهذه فكرة اكثر بعداً عن الحقيقة من كل الفكر التى دحضناها سابقاً . انهم يتوهمون ان الاجسام المركبة المتعضونة تشبه كتلة من العجين او الطفل وتقبل التشكل بين الاصابع . بمجرد ما ابتدأ هؤلاء العلماء فى الدخول فى مفصلات نظرياتهم جلبوا على انفسهم السخرية والاستهزاء فان الذى يستطيع ان يتجاسر على القول بان السمكة بمحاولتها واجتهادها لان تعيش فى الجفاف ترى اصدافها تتشقق وتستحيل الى ريش فتصير عصفورة او ان حيواناً من ذوات الاربع لشدة ميله للمرور من طريق ضيق ينقلب الى ثعبان . قلنا ان الذى يستطيع ان يتجاسر على هذا القول لا تكون نتيجة عمله هذا الا الدلالة على جهله المطبق بعلم التشريح . »

هذا حكم العلم على هذه النظرية ومع ذلك لو سلمت لهم فانها لا تثبت ان الخالق غير محتاج اليه لانه يقال : ومن الذي اوجد تلك الكائنات البحرية ؟

كلا : ان مسألة وجود الخالق لا يصح ان تعد فى صف المسائل المشكوك فيها والتى يتسع المجال فيها للاخذ والرد لانها اجلى البدائه العقلية والحسية معاً . ولكن يجب ان يعد نكرانها في باب الجنون من الكتب الطبية فان الجنون اشكال كثيرة وانواعه لا تكاد تحصى . ودليلنا المحسوس على ان مسألة نكران الصانع ليست الا نزغات شياطين سفلية تلعب بعقول بعض العلماء هو ما يتبع هذا النكران من مثل الهوسات العلمية التى نقلناها . فان اكبر مادى مهما كان غزير المادة قوي الحجة تراه عند الكلام على هذه المسألة ينسى اصول العلم المقررة وقواعده الثابتة ويضرب فى ليلاء من الشطحات وظلمات من المدركات التافهة لا يقع فى امثالها اطفال المدارس . فلو لم تكن المسألة من اصلها عارض يلم بالعقل لما كانت نتائجها بهذه الدرجة من السخافة وخساسة الرأي . اذا اردت ان تحقق الخبر بالخبر فاصغ الى ماسألقيه عليك من نظرياتهم فى كيفية خلق الكون بدون صانع لتتحقق ان اصل المسألة مس من الجن او نفحة من ماليخوليا شديدة :

ذهب بعض القدماء من الفلاسفة وشايعهم فيه بعض حرافيش العصر الحاضر الى ان هذا الابداع الفائض على جميع اجزاء هذا الكون البديع من عوالم الجماد والنبات والحيوان الى عالم الانسان (أتدرى ما الانسان ؟) نشأ بالصدفة والاتفاق ولا أثر للاختيار ولا للارادة فيه . اذا سألت هؤلاء (من عبدة الصدفة) عن كيفية ذلك برز اليك « ديموكريت »[1] ورفع عقيرته وقال : بدوران ذرات الاجسام حول نفسها فى الفراغ فى آماد لا تدخل فى حساب تكونت كل هذه الكائنات على اختلاف انواعها واشكالها وبرزت كما تراها على تباين اصنافها واجناسها ، فان وسعت من صدرك قليلا وحاصرتهم بالاسئلة وقذفت فى وجوههم شهب الاشكالات التى تستدعيها هذه النظرية وقلت لهم : كيف ساغ لكم ان تتصوروا ان « الصدفة » العمياء المجردة عن العقل والاختيار والارادة والتبصر والحياة امكنها ان تنظم حركات السيارات المختلفة الدائرة حول مراكز ثابتة بغاية الدقة والاحكام ثم كيف امكنها ان تصور اجسام الحيوانات التى لا تتناهى فى العدد والاختلاف بهذا الابداع المدهش ثم كيف امكنها أخيراً ان تكوّن هذا الانسان الجامع لسائر قوى الكون على صغر حجمه الشامل لجميع عجائب الخلقة ونهاية الاختراع ؟ اجابوك والحيرة تكاد تذهب بحياتهم بان « الصدفة » تستطيع ان تنتج كل الممكنات على شرط كثرة دفعاتها . . . . هذا القول منهم لا يعد طيشاً وهدماً لاحكام العقل فقط بل يعد ايضا هرباً فاضحاً عن موضوع البحث ان لم نقل غفلة منهم بقواعد التعقل والاحساس وذلك انهم لم يتجاسروا على التشبث باذيال الصدفة « معبودهم المقدس » الا بعد ان فرضوا ان المادة تحركت على نفسها آماداً مستطيلة ولم يستطع احدهم ان يفسر لنا مبدأ المادة ومبدأ تلك الحركة . فهل المادة والحركة قديمين لا اول لهما ؟ اذا قالوا نعم وساغ لعقولهم اللطيفة ان تعتقد بقدم المادة الصماء وحركتها فعلام اذن جشموا أنفسهم انكار الخالق ؟ لماذا اذن ملوءا كتبهم خزعبلات وتعسفوا فى الاحكام والمدركات حتى خرجوا عن دائرة الاجماع البشرى وصاروا امة وحدهم ؟ اذا كان منتهى فلسفتهم العالية الدقيقة ترمي الى اعتقاد قدم هذه المادة الغليظة وحركتها المستديمة فقد خسروا اعمارهم سدى واستوجبوا سخط العالمين اجمع (وسخط أنفسهم أيضاً) على غير طائل . لانهم

(١) واضع تلك النظرية . وهو فيلسوف يوناني كان عائشاً فى القرن الرابع قبل الميلاد

بالطبع لم يجشموا كل هذا التعب والنصب الا ليظهروا باعتقاد اسمى مما رسخ فى ذهن العالم كله . اى اعتقاد يلائم درجتهم فى الحكمة ودقتهم فى الفلسفة . ولكن جاء الامر بالعكس ووقعوا في اخس مما وقع فيه اولئك المتوحشون الذين يعبدون (الفتش) فى وسط القارة السوداء المظلمة ، لانه شتان بين الذى يعتقد ان اصل الوجود حياة كلية غير مادية ابرزت العوالم على هذا النظام المعجز وبين من يقول ان اصل الوجود مادة صماء عمياء ميتة وحركة لا منظم لها ولا ضابط . ياخيبة مسعى هؤلاء الفلاسفة المساكين ويانكد طالعهم . لقد اتوا بعد ان انشقت مرائرهم بحثاً وتنقيراً بنظرية يعلم الله انها لو لم تكسى من الفاظهم الفصيحة بحلة بليغة لعدت من اوضح مميزات الجنون واصرح دلائل الخبل والاضطراب المخي . اذا قيل لك ما هى النظرية التى لا تنطبق على عقل ولاحس ولا احساس . وما هى النظرية التى لها كل يوم من عمل الانسان ومشاهداته ادلة قاطعة على بطلانها وفسادها وما هى النظرية التى استند فيها اكبر شيء على لفظة لا معنى لها ولا حقيقة . وما هى النظرية التي تعد اكبر واجسم واغلظ مسبة للعقل الانسانى ؟ فقل له بدون احجام هى نظرية خلق الوجود بالصدفة !

سبحان ربى . هل غاب عن حضرات هؤلاء المتفلسفة انهم قد عموا عن شيء مهم جداً كان يجب ان يكون اقوى دعامة لنظريتهم تلك ؟ وذلك ان يقولوا لنا ماهى المادة فى ذاتها . اما يعلمون ان العلوم الطبيعية لم تزل واقفة موقف العجز عن ادراك كنهها ؟ اما وصل الى علم حضراتهم ان نظرية ديموكريت فى ان اصل المادة ذرات دقيقة لم يقبلها العلم الا من باب الفروض الظنية فقط ؟ أما طالع هؤلاء حيرة العلم والعلماء في هذه المسألة العويصة ! اذا كانت المادة مجهولة الكنه والاصل للآن فكيف يحكم بقدمها وازليتها ما هذه المغالطات الفارغة وما هذه السفسطات المضحكة ؟

اذا سلم الخصم جدلا وبطريقة فوق طاقة العقل بأن الصدفة هي التى ابدعت كل هذا الابداع فلماذا لم يشاهد بجانبه بعض تشوه فى بعض الكائنات بل بالعكس كلما ارتقى الانسان في العلم والفكر ازداد اعجاباً فوق اعجاب وادرك اسراراً لاشياء لم يكن يعتقد ان لها حكمة . قال الاستاذ الشهير (هرشل) : « كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق ازلى لا حد لقدرته ولا نهاية . فالجيولوجيون

والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده . »

اما والعلم والعقل والاحساس انه ليستحيل على الانسان ان يتصور ان الصدفة مصدر كل هذا الابداع وانها منزهة عن العبث والجزاف حتى في أصغر مكوناتها . واذا ساغ للعقل ان ينسب للصدفة مثل هذه القدرة المدهشة والحكمة الغير متناهية فمن يلومني اذا قلت ان نظرية (ديموكريت) هذه ليست منسوبة لحكمته وعلمه بل انه امسك القلم (صدفة) بازاء قرطاس طيره الريح اليه (صدفة) فسطر هذه النظرية (صدفة) وقرأها تلامذته (صدفة) واخذوا في نشرها وبذل الجهد في تأييدها (صدفة) وتحشموا سخط الخاصة والعامة من جرائها (صدفة) . . . . . نعم لانه ليست نظرية (ديموكريت) هذا باحكم صنعا ولا ادق تركيباً ولا ادعى للاعجاب والاستغراب من عينه التي وصفها الاستاذ الشهير (اولير) وصفاً فسيولوجياً دقيقاً ثم عقب ذلك بقوله : « ومع ذلك[1] فان الملاحدة يتجاسرون على القول بأن العين مثل الكون بأسره ليست الا نتيجة الصدفة الصرفة والاتفاق المجرد . ذلك لانهم لم يجدوا فيها شيئاً يستحق الالتفات ! (٢) ولم يروا أثراً للحكمة في تركيب العين ! ولذلك تراهم يتوهمون انه كان الاجدى والاجدر بهم ان يتألموا من نقص خلقتهم وخداج تكوينهم لانهم لا يستطيعون ان يبصروا شيئاً في الظلام ولا من خلال الحائط ولا يمكنهم ان يميزوا دقائق التراكيب من المرئيات البعيدة جداً مثل القمر والاجرام العلوية الاخرى . لهذا تراهم يصيحون بملء شدقهم ان العين لم تصنع قصداً ولكنها صنعت (اتفاقا وصدفة) مثل قطعة الطمى التي نشاهد في الفلاة . ويدعون انه من الغباوة ان يدعي الانسان اننا اعطينا الاعين لننظر بها بل الاجدر ان يقال اننا لما اعطينا هذا العضو بالصدفة استفدنا منه على قدر ما سمحت به طبيعته وقوته . فمن العبث ان نكلف أنفسنا الجدل مع هؤلاء القوم فانهم شديدو الجمود على فكرهم هذا ومنكرون لاكثر الحقائق استحقاقاً للاحترام والتجلة . »

---

(١) هذا جزء من خطاب ارسله الاستاذ الطبيعي (اولير) الى احدى البرنسسات العالمات يذكر لها فيه دقة تركيب العين (٢) هذه الجملة وما بعدها تهكم صريح على الملاحدة .

ماذا تريد ايها القارىء من قوم لا يخجلون من القول بأن هذه العين الجميلة ذات الصنع المدهش التى لم تتكون طبقاتها المختلفة ولم تناسب اخلاطها وسوائلها المتباينة ولم تتركب اجزاؤها المتناهية فى الرقة الا لترسم المرائى المختلفة فى الاوساط النورية المختلفة ؟ لا شك ان هؤلاء مصابون في عقولهم . ولكن لنقلع نحن عن وصف مصابهم هـذا ولنستشهد عليهم الفيلسوف الشهير فولتير فهو أدرى بحال ابناء جلدته . فقد قال عنهم في قاموسه الفلسفى المشهور ما يأتى : « ألا ان الادعاء بأن العين لم تخلق لنا لننظر بهـا ولا الاذن لنسمع بها ولا المعدة لنهضم الغـذاء بها يعد افظع الغباوات العقلية واكثف العمايات الجنونية التى تلم بالعقل الانسانى . »

نقول : لقد احسن فولتير فى وصفهم بهذا الوصف السافل فانه احسن ما ينطبق على حالهم كما اصاب الاستاذ (اولير) في عدم تكليف نفسه الخوض فى جدلهم لانهم احط من ان يقفوا فى مصاف المجادلين (ولو فى مسألة الحادهم) ولان كل امثال هـذه المقولات من السخافة والحطة بحيث يجب ان يتخطاها النظر كما يتخطى القذر والوضر . ولكن فى النفس كلمة نود ان نقولها لهؤلاء المتطرفين :

اذا كان كل هذا الوجود المدهش والابداع الذى حير الفكر وبهر البصائر والابصار نتيجة اعمال الصدفة فأى عمل بعد هذا تستطيع ان تنسبه (للحكمة) . . . . ؟ انا نشاهد باعيننا ان أقل الناس عقلاً واكثرهم تشبثاً بالخيـال وفى مقدمتهم القائلون (بنظرية الصدفة) لو قلت له ان هذا القلم برى بالصدفة شن عليك غارة شعواء وربما اتهمك بالجنون وله الحق في ذلك لان الحس ذاته يشهد بفساد هذا الزعم وبطلانه ولكن من العجيب ان ذلك المتطرف الذى انفعل واتهم مخاطبه بالخبل العقلى لنسبته انبراء القلم للصدفة تراه اذا تكلم على هذا الوجود وابداعه وعجائبه ومدهشـاته وعوالمه لا يخجل ولا ينفعل من نسبته (للصدفة والاتفاق) مع ان الفارق بين انبراء القلم وخلق الكون لا يقدر بوجه من الوجوه . لم هذا ياترى ؟ لا شك لحبسهم افكارهم فى دائرة ضيقة وتقييدهم تصورهم في احرج غل من اغلال القصور . انهم لم يستطيعوا ان يتصوروا ان القلم ينبرى بنفسه بدون البارى ذي الآلة والارادة لكونهم علموا ذلك بالخبرة وعرفوه بحاسة النظر ولكنهم انكروا صانع الكون (تقدس عن المشاكلة) ونسبوا الوجود كله لفعل الصدفة لكونهم

لم يروه باعينهم الضئيلة ولم يعهدوا مثالا لخالق الكون . اذن فما أضيق مجال هذا الفكر وما احرج ميدان هذا التصور وما اقصر باع هذه العزيمة ! هؤلاء بدل ان يسعوا في معرفة الخالق الحق ويهتموا فى التقرب الى ادراكه من مظان الخطوة منه — وابواب العلوم والمدركات غير محصورة — تراهم يسدون السبيل فى وجوه انفسهم ويطفقون يخبطون خبط العشواء في فروض وظنون ليست من حقيقة الواقع فى شيء ويصرفون اعمارهم فيما يفسد فطرهم ويصدىء من مرآة انسانيتهم .

ما هى الصدفة ؟ ؟ ؟ الصدفة كلمة اصطلح عليها الناس للدلالة على كل مايصدر بدون قصد ولا ارادة وقليل من نتائجها ما يعتد به حتى انه قد يمر على الانسان عشرات من السنين بدون ان يصادف (صدفة لطيفة) تستحق اعجاب العقل بها وان صادفها كثر تعجبه منها واخذ يحدث بها اخوانه على سبيل الفكاهة لشذوذها عن سنن الوجود وقوانين الحياة المعروفة ولندرتها وعدم الاعتياد على حصول امثالها . اذن أليس من العجيب ان لفظة يكون هذا مضمونها وتلك حالة نتيجتها من الشذوذ والندور ينسب لها خلق هذا الكون كله بهذا الابداع والاحكام المدهشين ؟ ؟ ؟ ما هي الصدفة ؟ الصدفة كلمة اخترعها (الانسان) واطلقها على حدوث اشياء تافهة فى (عالمه المحدود) وقد يمر على احدنا ردح من الزمن ليس بقصير لا تأتى هذه (اللفظة الحقيرة) فى كلامه فى جملة معقولة . اذن أليس من العجيب الغريب ان يجترىء الانسان (ذو العلم المحدود) وينسب خلق هذا الوجود الذي لا يتصور العقل له حداً الى قدرة لفظة اصطلح عليها للزومها له فى تعليل بعض شواذ حوادثه اليومية الحقيرة !

ان علماء الاديان يندون ببعض أصحاب الاديان تنديداً مراً لكونهم جعلوا الكرة الارضية مركز الكون كله ولكونهم زعموا ان الانسان هو المنفرد بالوجود فيه . فما بال حضراتهم وقعوا في شر مما يعيرون منه سواهم ؟ فانهم لم يجعلوا الكرة الارضية مركزا للوجود فقط بل جعلوا لفظة (فارغة) من لفيظات سكان هذه الكرة (الحقيرة) سبب الخلق والايجاد وعللوا بها كل هذا الاختراع والابداع مما لا يدخل تحت سلطان الفكر ولا تنتهى اليه هبرزيات القوى المدركة السامية جداً .

ان الماديين ينصحون غيرهم بعدم حصر أفكارهم في حيز حرج ضيق ويقولون

كما يقول اكبر علماء القرن فى علم الطبيعة وهو الاستاذ (هكسلى) : « ان ممكنات الطبيعة غير محصورة » ويدعون ان في بعض الكواكب اناساً لهم شؤون ومدركات غير شؤوننا ومدركاتنا . فما بالهم يحصرون افكارهم فى دوائر اضيق من سم الخياط ؟ سلهم قائلاً : أليس من الجائز ان اولئك الاقوام سكان الكواكب موجودون فى وسط ليس فيه حوادث تشذ عن القواعد مطلقاً «لان ممكنات الطبيعة غيرمحصورة » وبذلك لا يكونون قد وضعوا فى قواميسهم لفظة « صدفة » فبما اذن يعلل ملحدوهم خلق الكون ؟ اي ملحد لا ينكمش امام هذا السوآل ؟ واي عابد من عباد الوهم لا يكسر صنم معبوده الصدفة ويذريه في ذيول السافيات ؟ بل أي قصير النظر لا يقف هنا وقفة الحيرة ويطأ من تلك الكبرياء الكاذبة التى هوت به رغم انفه الى أسفل سافلين ؟

دونك نظرية أخرى من نظريات الماديين ليست بأقل استحقاقاً للسخرية والاستخفاف من سابقتها : زعم احد فلاسفة الالمانيين وشايعه غيره ان الصانع لم يوجد فى الماضى ولكنه وجد الآن (كبرت كلمة تخرج من افواههم) أي انه (تعالى علواً كبيراً) كون كل هذه الكائنات على ما هي عليه من ابداع وجمال ونظام وهو غير عالم (معاذ الله) ماذا يعمل وغير مدرك وجود ذاته الى ان توصل الى خلق الانسان وهو أفضل الكائنات واشرفها فأدرك وجود نفسه به وصار لها معبودا .

نقول ان في هذه النظرية من قصر النظر وحصر الفكر مالا يخفى على بصير . فانه لا دليل على ان الانسان هو أول كائن مدرك فى هذا الوجود كله . فربما يوجد عوالم أخرى متمتعة بخاصية الادراك والعلم خلقت قبله بدشليونات من السنين لا تدخل تحت حصر . ان كان هذا ممكنا فقد اتضح ان أساس نظريته فاسد مختل لا يصح البناء عليه .

لا جرم ان قائل هذه النظرية قد تدنى الى اخس دركات القصور الفكرى وهبط الى حضيض من الوهم لا يغتفر لرجل يدعي التنور في العلم . لان هذه النظرية تستدعي من الاشكالات مالا يستطيع معها قائلها ان يرفع رأسا او يحير جواباً .

ليت شعرى ما معنى قوله ان الصانع كون كل هذه المبدعات وهو غير عالم ماذا يصنع ؟ ما هذه السفسطة ؟ ماذا يقول حضرته لو قلنا له كما يقول العلامة الطائر الصيت (نيوتن) الفلكى الشهير : « هل يعقل ان هذه العين تتكون بدون العلم بنظريات الضوء

وهل يمكن ان تكون هذه الآذان بدون العلم بنظريات الصوت . . . ؟ » ونقول له نحن : هل يمكن ان تعطى لهذه الاعضاء الحيوانية الدقيقة هذه الوظائف المتناسبة بدون الالمام التام بعلم الفسيولوجيا . . ؟ وهل يتصور العقل ان تتم هذه النباتات بشرائط حياتها وتكاثرها وبقاءها بدون العلم بحالة الاوساط التى تعيش فيها معرفة كلية ؟ بل هل يتصور ان يهب الادراك والحياة من لا ادراك له ولا حياة . . . ؟

يقول الملاحدة ان المكون الحقيقى هو (الوسط المناسب) أى المكان المستأهل للتكوين والايجاد فمتى توفر الوسط المناسب بطلت الحاجة الى غيره . نقول من الذي كون ذلك الوسط المناسب الذي صلح لتكوين كل هذه المبدعات التى تقصر عزائم التصورات عن ادراكها ؟ ومن هو الذى متع ذلك الوسط بكل ما يحتاج اليه من النواميس والقواعد ؟ ومن هو الذى وفق بين الشرائط الضرورية وناسب بين أفاعيلها لكي تكون مكوناتها منتظمة غير مشوهة ؟ بل من هو الذي اعد تلك الاوساط وهيأها وخالف بينها لتصلح لايجاد الكائنات المختلفة مع علمك بأن الكرة الارضية فى مبدأ أمرها كانت كتلة ملتهبة متجانسة فى سائر جهاتها ؟ هل يعقل ان كل هذه البدائع التكوينية والصنائع المتناهية في الجمال والدقة تكون نتيجة اوساط ارضية لا فاعل فيها غير الصدفة العمياء . ما احق اتباع هذا المذهب بان يحبسوا فى صحراء حتى يجوعوا فاذا طلبوا الغذاء قيل لهم انتظروا حتى يستعد الوسط من نفسه لانبات القمح لكم وحتى يستعد الوسط لتكوين احجار تصنعون منها طاحوناً وحتى يستعد الوسط لتجهيز العجين والنار فيأتيكم غذاؤكم من طريق الصدفة بفضل (الوسط المناسب) لاجل ان تقيموا على صحة نظريتكم برهاناً مفحماً ! بخ بخ ما اصنع هذا الوسط المناسب ! هؤلاء هم الذين يقولون ان الاعضاء لم توهب لنا قصداً وللاغراض التى نستعملها لها بمعنى ان العين لم تعط لنا لننظر بها ولا الاذن لنسمع بها ولا اللسان لنذوق به الخ ولكن الوسط المناسب وهبنا كل هذه الاعضاء اعتباطاً بدون قصد فاستفدنا منها فى صالح انفسنا ليس الا ! هذا القول يشبه قول رجل مغفل ان الانسان لم يتعمد صنع المحراث ليحرث به الارض ولكنه حرثها لكونه وجد محراثاً وقد مر قول الفيلسوف (فولتير) والاستاذ (اولير) فى استهجان العلم والعلماء لهذه السفسطة المضحكة ولا لزوم للترديد .

اننا لفي غاية العجب من تناقض هؤلاء فى اصولهم . وذلك انهم من جهة من اكبر المؤمنين بنظرية العلامة (لامارك) القائل بأن الوظيفة تخلق العضو ولكنهم من جهة أخرى تراهم كثيراً ما يتطرفون في التعبير ويأتون بمايؤخذ منه صريحاً ان العضو هو الذي يخلق الوظيفة أليس قولهم السابق يدل على ذلك ؟ فسبحان المنزه عن التناقض .

ومع كل ما تقدم فان قولهم ان الضرورة تخلق العضو غلط محض بل هو قول خرافى . ما هي الضرورة ؟ كل يعلم ان الضرورة هى الحاجة والحاجة فى نفسها لا تسمع ولا ترى ولا تهب .

الضرورة تبعث للطلب سواء بلسان الحال او بلسان المقال ولكنها لا تستطيع ان تعطي شيئاً وهل بعد الحس دليل . قل لهؤلاء اذا فرض وحدثت لحيوان من الحيوانات حاجة الى كبر حجم عضو من اعضائه او طول ظفر من اظفاره فقد وجدت (الضرورة) ولكن اين الواهب والمعطي . ماالذى يعرف حاجة ذلك الحيوان الى ذلك العضو فيهبه حاجته الضرورية منه ؟ اذن فقد وجب ان يوجد مهيمن على الموجودات معتن بها ليزيل بقدرته وواسع رحمته (ضرورات) مخلوقاته والا فالضرورة وحدها غير كافية . بل الضرورة وحدها ليست الا الالم بعينه . قال الاستاذ الطائر الصيت (نيوتن) : « من المستحيل تصور ان الضرورة هى المؤثرة وحدها على هذا الكون لان هذا التخالف فى الكائنات لا يمكن ان يتأتى من ضرورة عمياء هى هى فى كل زمان ومكان . والخلاصة ان الكون فى تناسق اجزائه وتناسبها مع تغيرات الازمنة والامكنة لا يمكن ان يصدر الا من ذات اولية لها علم وارادة . »

وهناك نظرية أخرى تنسب لاحد الفلاسفة الفرنساويين . قال : ان العالم لااله له (معاذ الله) ولكنه مخلوق على مقتضى قاعدة ثابتة مرسومة له من القدم ووصف تلك القاعدة بكل اوصاف الجلال والكمال وقال فى سعة اختصاصها كل ما يمكن ان يقال . اما نحن فلا ننكر ان الوجود خلق على مقتضى قاعدة ثابتة ازلية موافقة لعلم الله القديم ولكنا لا نطمس نور افكارنا بظلمات القصور فلا نقول ان تلك القاعدة البالغة حد النهاية فى الاحكام وجدت بنفسها بدون خالق او انها خلقت الكون بدون وجود من يطبقها على العمل . لانا اذا قلنا ذلك أقام ضميرنا علينا الحجة وقال اذن فالقاعدة التى

بنى على مقتضاها هرم الجيزة لم يضعها مهندس ماهر وان تلك القاعدة هى التى بنت الهرم بدون احتياج لقوى العملة .

اذا اقام علينا ضميرنا هذا الحجة لم نجد ولا شك ما نقنعه به بوجه من الوجوه وتهنا فى متاهة الحيرة والدهشة . فاما ان نصر (والعياذ بالله) على القول بعدم احتياج تلك القاعدة الى فكر المهندس وقوى العملة وهو مما يأباه المجانين فضلاً عن العقلاء واما ان نطيع داعى العلم والعقل والحس فنعترف باحتياج تلك القاعدة القديمة الازلية للمنفذ المريد المختار لنريح ضميرنا من شر ماينتابه من الوقوف مع هذه النظرية الجنونية .

هذه هي أهم نظريات الملاحدة وقد رأيت انها كما قلنا وقاله اخوانهم فى العلم والجنسية افكار ماليخوليه لاتقبل امتحاناً ولا يستطيع أحد ان يقيم عليها برهاناً فما هي الا سفسطات دعت اليها دواعى الملاجة والعناد . . . . . .

﴿ الالحاد امام العلم ﴾

كان الذى عملناه في فصولنا المتقدمة من سرد شبه الملحدين وعرض استشكالاتهم الواهية الواهنة يكفى لبيان قصورهم وينبه على حقيقة مراكزهم في العالم العلمى ويهوى بهم عن الاوج الوهمي الذي رفعهم اليه بعض الغفل من الشرقيين الذين يظنونهم هاميم العلم وحماة المعارف العصرية واقطاب الفلسفة العملية الحسية الخ ولكنا رأينا ان نعقد هنا فصلا خاصاً فى الالحاد امام العلم لنثبت فيه بالبراهين المحسوسة ان العلم اسمى من ان يتدنى الى نكران اوضح البداهة الوجودية واكبر من ان يشايع أصحاب النزغات الجنونية الذين يريدون ان يتخذوه آلة لاطفاء نور العقيدة من أفئدة البشر .

ما هو العلم ؟

كان العلم فى سالف العصور يطلق على خلط من فروض ظنية وتجارب ناقصة وروايات خرافية وعلى كل ما لفظه كبير من كبراء ذلك الزمان سواء كان في المدركات العقلية او المحسوسات التجريبية . ولو تصفحت اليوم اوثق كتاب من كتب الاقدمين

ولتكن مثل كتب ارسطو مثلا لا تكاد ترى حقيقة خالصة من شوب الوهم ومنزهة عن الظنون والمدركات الغريبة . لهذا السبب كانت الجامعة العلمية بين الامم مفقودة بالمرة لاختلاف العلم الواحد فى الامتين المتباينتين تمام الاختلاف . لان هذه ادخلت اليه من اهواء كهنتها ونزغات فلاسفتها ما يلائم طبيعتها ويشايع عقيدتها وتلك فعلت مثل ذلك بالنسبة لما هى فيه من تلك الاحوال فتعاكس الامران وهما فى الاصل شىء واحد والخلاصة كان العلم فى سالف العصر اسير الاهواء النفسانية والمعتقدات الخرافية والعوائد البلدية لا مسيطراً عليها كما هو الواجب ان يكون . اما العلم فى اصطلاح العصر الحاضر فهو مجموع المدركات الانسانية المثبتة بالمشاعر والتجارب المتكررة المدققة والمستقلة تمام الاستقلال عن المعتقدات والعوائد والاهواء والفروض والظنون ولذلك ترى ما يسمى في بلدة علماً كيماوياً مثلا هو بعينه ذلك العلم فى بلدة مسامتة لها من الكرة وهكذا فى سائر فروع العلم الداخلة تحت سيطرة الامتحان والاختبار . هذا هو العلم الصحيح الواجب التسليم به والحاصل على أقوى الادلة على صحته وحقيقته الا وهو طاعته لامتحان المشاعر . الا انه لم يزل هناك حاجة الى فرض الفروض والتخمينات لان سائر المدركات والمحسوسات لا يمكن الحكم عليها والانتفاع بها فى عالم الصناعة على اختلاف أنواعها الا اذا ضمت طوائفها المتشابهة الى وشيجة تضمها وتربطها ليمكن تعرف سير الناموس السائد عليها ليستطاع التسلط عليها من قبله وجهته . هذا هو وجه الحاجة الى زعم ان هذه الظواهر مثلاً سائد عليها الناموس الفلانى وتلك ناموسها هو الناموس الفلانى وهكذا وكلما كان الفرض من تلك الفروض شاملا لاكثر علاقات تلك المشاهدات ومفسراً لجل خواصها ووظائفها كان اقرب الى الحقيقة من سواه فيعتنقه العلماء موقتاً منتظرين ما يهديهم اليه العلم فى المستقبل فهم اذن مستعدون تمام الاستعداد وبقلب رحب لتغيير وتحوير كل فرض فرضوه متى اتضح لهم ان هناك ما يظهر انه اقرب منه الى حقيقة الواقع واكثر منه تفسيراً لظواهر تلك المشاهدات التي يريدون ايجاد ناموسها . وقد مر بك قول الفيلسوف الشهير (اجوست سبانيه) فى كتابه فلسفة الدين ما يأتى :

« ان العلماء هم أول المعترفين فى كل فرع من فروع العلم بانهم لم ينالوا من العلم الاجزءاً محدوداً . واكثرهم علماً هم اكثرهم تواضعاً . وكلهم يعترفون بأن ما حصلوه للآن

من الاكتشافات وما درسوه من هـذا الجزء من الطبيعة ليس الا عدماً بالنسبة لما يجهلونه . فهم (تأمل) مستعدون لتنقيح القوانين التي قرروها وتوسيع الفروض التي فرضوها وضم كل ما يشاهدونه من المشاهدات الصحيحة الى ما كان لديهم منها . الخ »

وقال الاستاذ الطائر الصيت (كاميل فلامريون) : « ما هي النظرية في اصطلاح علم الفلك والطبيعة والكيمياء ؟ اننا نشاهد المشاهدات أولاً حتى اذا تكون لدينا منها مجموع كاف نبحث لان نضم بعضه الى بعض بناموس يشملها جميعاً . ولكن هل نرى ذلك الناموس باعيننا ؟ لا . انما تخرصه تخرصاً بامتحان المشاهدات وربما جاء الاسم الذي نعطيه لذلك الناموس اقل صلاحيـة له من غيره . هذه النظرية التي بواسطتها يتوق عقلنا الطموح الى تفسير الاشياء ليس هو في الحقيقة الا فرضاً لا قدر له ولا قيمة الا على قدر ما يفسر لنا من مسانير المرئيات المحسوسة . فيبقى هذا الناموس في مصاف الفروض الواهية الواهنة التي يمكن ان تذروها الرياح ولا يرتفع الى مقام الفروض العلمية الا في اليوم الذي يثبت فيـه بالامتحان والا قذف به الى حضيض التصورات الوهمية . » اذا تقرر لديك هذا اتضح لك ان لا وظيفة للعلم العصري الا البحث عن ظواهر الاشياء وقشورها الداخلة تحت احكام الحواس وامتحان المشاعر وان نظرياته هي نظريات وقتية مستعدة للتحوير والتغيير متى آن اوان ذلك عند اتساع نطاق العلوم واكتشاف أثر جديد له علاقة بتلك النظرية كما هو حاصل يومياً . فاذا كانت هذه هي وظيفة العلم الجديد فيكون من الافتيات عليه اتخـاذه آلة لنفي الصانع والادعاء بانه يدعو الى نبذ الاديان والعقائد ويحمل الى التكذيب بكل العوالم التي هي وراء هذه المادة .

يقول قائل ومن هم اذن اولئك الرجال الذين يدوي صدا صوتهم من آن لآخر في بعض بقاع الكرة الارضية بدعاو طويلة عريضة مثل نكران الصانع والروح والخلود باسم العـلوم العصرية التي يزعمون انهم قادتها واركانها وحملة اعلامها ؟ نقول اننا مهما قلنا في سبيل اهباط مقام اولئك الطغاة الأثمة وتسفيه احلامهم والبرهنة على انهم ليسوا من العلماء الموثوق بهم فلن نسلم من ان يعزونا بعض الناس الى شدة التحامل عليهم مهما كانت الثقة بنا في امثال هذه المواضيع المهمة لذلك لا نرى بداً من استشهاد اساتذة العلم في اولئك الدعاة الغلاة ليكون الكلام ابلغ في الحجة واوقع في النفس . قال الاسـتاذ

(كاميل فلامريون) المتقدم ذكره: «لقد عجز الاساتذة عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه ولذلك فهم مقرون بضرورة وجود الخالق وبتأثيره الدائم المستمر ليمكنهم تفسير تعاقب الكائنات وادراك سر اصول الاشياء. اما التلامذة فانهم يدعون انهم فاقوا معلميهم فقاموا يحرفون نظرياتهم. التي يزعمون زوراً انهم حماتها ومؤيدوها.»

هذه شهادة العلماء في الملحدين ولو كان فيهم عالم يوثق بعلمه او فاضل له مقام في عشيرته او ذو حيثية له احترام في شعبه لما قام (كاميل فلامريون) وهو ذلك الرجل العاقل يعلن على رؤوس الاشهاد ان هؤلاء الدعاة الغلاة هم تلامذة ليسوا باساتذة وانهم من الخيانة وعدم الامانة بحيث صرفوا نظريات معلميهم وشوهوا من وجهها. وقال الاستاذ الموما اليه: «ان بعض الذين يدرسون العلوم ويشخصونها او الذين يزعمون انهم شراحها يعلمون مذاهب باطلة وخيمة. وترى العقول العطشى والمتذبذبة مع أخذها من كتبهم معلوماتها لاحتياجها اليها تشرب معها سماً زعافاً يهدم في افئدتها جزءاً من فضائل المعرفة. بهذا اصبح من الضروري ايقاف هذه السلسلة الفظيعة التي تهددنا بشيوعها شيئاً فشيئاً. لهذا نرى من اللازم اللازب مناقشة هذه المذاهب الحساب والبرهنة (تأمل) على انها ليست من العلم في شيء كما يدعيه بعض الناس وعلى انها ثمرة غليظة من ثمرات الافكار الجامدة التي يرجوعها على نفسها دائماً تتوهم انها مؤسسة على العلم بينما هي لم تقبل من تلك الشمس المضيئة (شمس العلم) الا شعاعاً ضئيلا حاسداً عن سيره الطبيعي.»

نعم الالحاد احقر من ان ينتسب الى العلم او العقل او ان يسمى مذهباً انسانياً واقل واصغر من ان يهتم بشأنه. بل الالحاد وهم يلم ببعض العقول المستعدة لهمزات شياطين الوساوس.

ان الاحساس بالعقيدة ألصق بفؤاد الانسان من كل احساس فيه وليس المنكر لها باقل احساساً بها من سواه بل ربما كان تظاهره بالجحود والنكران حجة ناطقة على كونه أشد الناس تأثراً بها الا انه ضل الطريق واخطأ المهيع فتقذفت به حيرته الى متاهة من الشطحات هي ظلمات بعضها فوق بعض فلم يرالمخلص منها الا فرض الفروض وابتكار انواع السفسطات التي لو خلا بها يوماً وحكم فيها فطرته لضرب بها عرض الحائط ولعلم

ان احساسه فى واد وما تخيله منها فى واد آخر . وانا لو سئلنا يوماً عمن هو اكذب الناس على نفسه لقلنا بدون تردد : هو الرجل الذى يزعم انه ملحد

ان اردت ان تعرف حقيقة مركز الملحد من العلم وكنه مقامه من الحكمة فاسمع : المؤمن والملحد بالنسبة للوجود يتحدان فى الاقرار بأن كل ما فيه تابع لقوانين محكمة ونواميس ثابتة ذات اغراض حكيمة ولم يوجد لهذا الحين غبي يدعي ان الكائنات العلوية والسفلية غير تابعة لقوانين ثابتة محكمة بل لاينتظر ان يوجد ذلك الغبى فى عصر من العصور المستقبلة لان كل العلوم الطبيعية والرياضية مبنية على تلك النواميس ولولاها لما وجد علم البتة . فالفارق الوحيد بين المؤمن والملحد هو ان الثانى يقصر نظره على التدبر فى افاعيل تلك النواميس ويضرب الصفح عن التأمل فيها نفسها فيقول مثلاً : ان الكواكب متماسكة بقانون التجاذب (وهو لم يره) والنباتات تتغذى بنواميس الامتصاص وهكذا وكلما ارتقى فى العلم ووقف على بعض الاسرار الطبيعية التى لا يستطيع تعليلها اخترع لها ناموساً خاصاً بها فنواميسه اذن لا تتناهى . واما المؤمن فلم يخطئه التدبر فى افاعيل تلك النواميس ولكنه لم يرد ان يقصر نظره عليها بل دقق النظر فى مجموعها فرأى انها ليست مستقلة فى ذاتها ولكنها مظاهر مختلفة لقوة واحدة هى المهيمنة على هذا الوجود كله . ولم يعتقد هذا بدون برهان محسوس بل قال : انها لو لم تكن كذلك لما كان هذا الترتيب البديع في الكائنات العلوية والسفلية ولما كان هذا التضامن المتبادل بين العوالم الكونية . قال انظر الى هذا النبات النامى وتأمله على طريقة علماء المادة تجد انه مسود بجملة نواميس مختلفة فلو كانت كل هذه النواميس مستقلة وغير متحدة فيما بينها لاختل حال النبات ولخرج على غير مقتضى الحكمة . اذن وجب ان نعتقد ان كل هذه النواميس متحدة ليس فيما بينها فقط بل ومع النواميس الخارجية أيضاً ولولا ذلك لعدت عليها نواميس الحرارة الشمسية والارضية والرطوبات الجوية وغيرها . اذن لزمك الاقرار والجزم باتحاد كل نواميس الكرة الارضية على اختلاف افاعيلها ووظائفها . ولو صعدت قليلاً الى مستوى ارفع من هذا لحكمت حكماً جازماً بان نواميس الكرة الارضية يجب ان تكون متحدة مع نواميس الوجود كله لان الارض ليست الا كوكباً حقيراً من هذه الاجرام الحقيرة بل هي منها مادة واصلاً وتابعة

لحركاتها واحوالها . اذن فنواميس الوجود كله متحدة فيما بينها ولا معنى لاتحادها الا كونها مظاهر مختلفة لقوة واحدة عامة مهيمنة على هذا الوجود باسره وحافظة له من التلاشي والعدم . هذا النظر مما لا يكاد يتردد فيه عاقل ولا مجنون ولكن لما كانت الحقائق المعقولة لا تذاق لدى كل الناس الا اذا اقيم عليها مثال محسوس فخذ نفسك ذلك المثال وتأمل فى ذلك حين اعتنائك باداء عمل مخصوص . ماذا ترى ؟ ترى ان قوى يديك وقوى عينيك وقوى رجليك وقوى جميع عضلاتك وخلايا مخك وجسمك تشتغل وتكد كلها لاتمام ذلك العمل على الطريقة المطلوبة بغاية الاتحاد والوئام لا تحس بان قوى يديك مثلاً تعاكس قوى عينيك ولا تشعر بان بين اعضائك العاملة اقل مضادة فيما بينها مما يحدو بك الى الجزم بان قوى تلك الاعضاء المختلفة ليست بمستقلة بل هى مظاهر مختلفة لقوة رئيسية فيك هي قوتك الحيوية العامة .

اذا تقرر هذا ولا سبيل الى المكابرة فيه لانه مشاهد محسوس فلنقف هنا قليلاً ولننظر الى معتقد الماديين فى هذه القوة العامة لانها عقدة الاشكال فى هذا الموضوع فنقول :

يقول الماديون ان هذه القوة غير مستقلة ولكنها صفة من صفات المادة يعنون بذلك انه ليس فى الوجود الا مادة عمياء متمتعة بقوة عمياء مثلها وانه لا يمكن ان تستقل القوة عن مادتها مطلقاً . تذرعوا بهذه النظرية المدحوضة الى نكران العالم الروحانى بالمرة وزعموا ان ليس الوجود الا هذا العالم المحسوس المظلم الفانى فان سألتهم قائلا كيف تنكرون الادراك والحكمة المتمتعة بها تلك القوة وأنتم ترون الانسان مع حقارته حياً مدركاً حكيماً فهل هو وحدة الحي المدرك الحكيم فى هذا الوجود كله ؟ ومن أين أتى له الادراك والحياة ان لم يكن قد استمدهما من حياة عامة مدركة ؟ اذا ضايقتهم بامثال هذه الاسئلة أتوك بالمدركات العجيبة الغريبة التى لا تصدر الا من أصحاب الخيالات الجنونية كان يقول الدكتور (هرمن شفلر) : الروح ليست الا قوة من قوى المادة ناتجة من الاعصاب مباشرة . ويقول لك (ويرشو) : ليست الحياة الا نوعاً من أنواع الميكانيكا ويقول لك (بوشنر) ليس الانسان الا نتيجة المادة وما هو بذلك الكائن الذى يصفه الاخلاقيون فما له ادنى خاصية ممتازة . ويقول لك (دوبوا ريمون) : يوجد فى كل

عصب تيار كهربائي وليس الفكر الا حركة من المادة . ويقول لك غيره : ليست خواص الروح غير وظائف المادة المخية فهي بالنسبة للمخ كالبول بالنسبة للكليتين ويقول لك غيره : ان ادراك الانسان لوجود نفسه ليس الا احساساً بالحركات المادية المرتبطة في الاعصاب بتيارات كهربائية ومدركة بواسطة المخ .

وغلا غير هؤلاء وهما النباتي (روتروشيه) والفسيولوجي (بيشا) فزعما ان الحياة ليست اصلاً من اصول الطبيعة بل هي فلتة استثنائية . . . . ضد النواميس العامة للمادة وتعطل وقتي للقوانين الطبيعية الكيماوية التي لم تلبث أن تخضع هذه الفلتة الاستثنائية (الحياة) لجبروتها وترد الحي الى اصله الميت . فالموت على زعمهما هو انتصار قوانين المادة العمياء على الحياة التي هي حالة عرضية وفلتة استثنائية .

من يتأمل قليلاً في هذه الاقاويل يعلم لاول وهلة ولو لم يكن له نصيب من العلم انها افتيات على العلم وظلم مبين للمعلومات العصرية . فان العلم اجل من أن ينكر شيئاً بدون برهان واكبر من ان يحل الاشكال باشكال اعوص منه . ولسنا نقول هذا والجو خال لنا من المعارض بل انا نستطيع أن نرفع اصواتنا بهذا أمام هؤلاء المدعين انفسهم لانهم مع ادعائهم ذلك يعرفون كما يعرف كل الناس ان مقولاتهم تلك لا تخرج عن دائرة التصورات الخيالية التي لا يقصد بها الا الملاجة والمعاندة ليس الا .

جاء في احد اعداد المجلة الطبية الباريسية يوماً هذه الجملة : « ليست الفكرة الواحدة الا اتحاداً يشبه اتحاد حمض الفوسفيك . والتفكر نفسه ناتج من الفوسفور (الذي هو في تركيب المخ) . فالفضيلة والاخلاص والشجاعة ليست الا تيارات كهربائية عضوية » فرد عليها الاستاذ كاميل فلامريون العلامة الطبيعي قائلاً : « من اخبركم بذلك ياحضرات المحررين ؟ ان الناس يتوهمون ان معلميكم يعلمونكم هذه الهذيانات مع ان الامر بخلاف ذلك . لان هذه الادعاآت ليست امام النظر العلمي الا هباء منثوراً . على انى لاادري أي الامرين يستحق ان نتعجب منه اكثر : أمن هذه الجسارة الصادرة من هؤلاء الممثلين العجيبين للعلم أم من سخافة ادعاآتهم . ان (نيوتن) كان يقول : « يظهر لى . . . » (وكبلر) كان يقول : « انى استنزل حكمكم فى هذه الفروض . . . » ولكن هؤلاء يقولون : نحن نثبت . نحن ننكر . هذا موجود . هذا غير موجود . العلم قد حكم .

العلم قد أقر . العلم دحض . مع انه ليس فيما يقولون ظل من البرهان العلمي . » الى أن قال : انكم تجاسرون بأن تعزوا للعلم هذا العبء الثقيل من ضلالكم ولئن سمعكم العلم أيها السادة — ويجب ان يسمعكم لانكم ابناءه — فقد حق له ان يضحك استهزائاً من غروركم . انكم تقولون العلم يثبت . العلم ينفي . العلم يأمر . العلم ينهى . وبذلك فأنتم تضعون على شفتي هذا العلم المسكين هذه الكلمات الضخمة وتدخلون الى فؤاده هزة الكبر والعجب . لا يا أيها السادة ان العلم في هذه المسائل لا ينكر شيئاً ولا يثبت شيئاً ولكنه يبحث . وأنتم تعلمون ذلك كله ولا تجهلونه . اعلموا ان شكل جهلكم تغر الجهلاء وتضلل كل من لا يستطيع ان يبحث مثلكم . واعرفوا ان الانسان اذا اتسم بسمة العلم وجب عليه ان لا يغشه وان يكون أميناً بالنسبة اليه . وان يصير مدافعاً متواضعاً في دعوى لم يجعلها شرعية حقة الا تواضعها ليس الا . »

هذه الجملة من الاستاذ (كاميل) تبين بطريقة جلية ان العلم برىء من امثال هذه المزاعم الفاسدة بالمرة وان هؤلاء الغلاة يفتاتون عليه افتياتاً شنيعاً ويتقولون عليه الاقاويل التي يأباها العقل ويأنف منها . لذلك اصبحوا منبوذين مرذولين يتبرأ منهم كل من يشرف على سخائفهم ويندهش من جسارتهم على تكذيب الحس والمشاهدة ومجاحدة الحقائق الساطعة . قال الاستاذ الطبيعي الانجليزي (ميابن ادوارد) : « يجب ان يندهش الانسان لما يرى ان امام هذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالا يدعون لك ان كل هذه العجائب الكونية ليست الا نتائج الصدفة او بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة وأثر لتلك الطبيعة التي تكون مادة الخشب ومادة الاحجار . وان الهامات النمل مثل اسمى مدركات القوة المدركة الانسانية ليست الا نتيجة عمل القوى الطبيعية او الكيماوية التي بها يتم تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الاجسام . ان هذه الفروض الباطلة او بالاولى هذه الاضاليل العقلية التي يستروحها باسم العلم الحسي قد دحضها العلم الصحيح دحضاً فان الطبيعي لا يستطيع ان يعتقدها ابدا . واذا اطلى الانسان على وكر من اوكار بعض الحشرات الضعيفة يسمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الالهية ترشد مخلوقاتها الى اصول اعمالها اليومية . »

ليس لنا ان نفرض بالنسبة لهؤلاء الملحدة الا احد فرضين : اما انهم ينكرون الصانع

والروح والخلود عن اعتقاد ثابت . واما انهم مكابرون للحقيقة يريدون ان يشتهروا بمخالفتهم لما فطر عليه البشر ايذاناً بانهم صعدوا الى اوج اعلا من العامة حيث لايشاركهم فيه الا قليل من الخاصة فان كان الفرض الثانى صحيحاً فمجرد معرفتنا بتخلقهم به يكفينا مؤونة الرد عليهم فى شيء . واما ان كان الفرض الاول فلا يليق ان يتسموا بسما العلماء ولا ان يدعوا لانفسهم لقباً ليسوا عاملين على مقتضاه . ذلك لان وظيفة العلم والعالم البحث والتنقيب والوقوف عند المجهولات بغاية التواضع لان التجربة تثبت لنا ان مشكلة اليوم تصبح بديهة الغد كما صارت معاضل العصور الخالية مقررات العصور الراهنة . واننا لا نتصور كيف ان عالماً يعلم ان المجهولات تكتنفه من كل جانب وان الذى خاله منها لا يساوى قطرة من بحر مما خبىء عنه منها يحكم احكاماً جائرة على ادق النقط مساساً بفطر البشر ويؤيد مدعاه بفروض وظنون طويلة عريضة وهو يعلم انه فى واد وحقيقة الواقع فى واد آخر .

قال الاستاذ (بيو) فى كتابه (شذرات علمية وادبية) : « على قدر ما اتدبر فى نظام هذا الوجود وسعته وفى جميع عجائبه اعجب من هذا الابداع المدهش وارانى فى حالة العجز عن تفسيرها وتعليلها . وانى لأتجاسر بأن اقول — لكونى جربت ذلك بنفسى — بان تلك التفسيرات الناقصة والتعليلات الكاذبة او المبهمة التى يريد ان يقنعنا بها بعض الكتاب العصريين بصفة مدركات سامية لاتظهر مجحفة وتافهة الا اذا قورنت بالطبيعة نفسها . وان الذين تشرفوا بمعرفة بعض جمال الطبيعة واحسوا بها وجدوا انفسهم مرغمين لان يعتبروا الذين يريدون ان يشوهوا هذا الجمال بتدليسهم القبيح كفاراً ملاحدة . فان كل الكائنات العضوية متمتعة بوسائل حياتها الذاتية المتنوعة فى اختلاف اجهزتها مثل تنوع الكواكب الزهر فى القبة الزرقاء . وزيادة على هذا فاننا لا نشاهد الا ما يظهر لنا من ذلك فى الخارج وقد حجب عنا ما هو أعجب واغرب . بعيشك قل لى من هذا الذى استطاع ان يفهم الاعمال الكيماوية الخاصة بالاعضاء الحية لهذه الكائنات والتى هي السبب فى حركاتها الارادية والغير ارادية .

ماذا أقول ؟ من هذا الذي استطاع ان يفهم سر طيران الذبابة وسر ألاعيب الفراش ؟ اذا وصل بنا ادراكنا الى معرفة الاستعدادات الخارجية لهذه التراكيب الجسمانية

والى تحديد العلائق المرادة الموجودة بين الاجزاء التى تركبها . قلنا اذا وصل ادراكنا الى هـذا ثم عمينا عن رؤية (الحكمة) التى امرت به ونظمته وعشينا عن تنورها فى صميم هذا المجموع نكون قد ناقضنا ضمائرنا مناقضة تامة . اما انا فأريد على الاقل ان اتعلم من هذا المشهد العظيم انى جاهل لا أدرى شيئاً . »

وقال (استوار ميل) : « تبدو الينا الحياة الانسانية محاطة بغوامض الأسرار فنرى دائرة تجاربنا الضيقة كانها جزيرة صغيرة ضالة فى بحر لا نهاية له يرفع احساساتنا ويساعد قوتنا الخيالية بعظمه وظلامه ومما يزيد ذلك السر غموضاً ان مجال حياتنا الدنيا ليس كجزيرة فى فضاء غير متناه فقط بل فى زمان غير متناه ايضاً . » (١)

وقال (اربرت سبنسر) : « نرى من بين كل هذه الاسرار التى تزداد غموضاً (تأمل) كلما زاد بحثنا فيها حقيقة واضحة لا بد منها وهي انه يوجد فوق الانسان قوة ازلية ابدية ينشأ عنها كل شيء . » (٢)

قلنا فيما تقدم ان الالحاد ليس بنتيجة من نتائج العلم ولا يمكن ان يكون كذلك فى عصر من العصور وان الامر بعكس ذلك على خط مستقيم بمعنى ان العلم يؤدى الى الايمان واليقين وقد اثبتنا ذلك من كثير من اقوال علماء الطبيعة انفسهم قال العلامة الطائر الصيت (لينيه) : « ان الله الازلى الكبير العالم بكل شيء والمقتدر على كل شيء قد تجلى لى ببدائع صنائعه حتى صرت مندهشاً مبهوتاً . فاى قدرة واى حكمة واي ابداع اودعه فى مصنوعات يده سواء فى اصغر الاشياء او اكبرها . ان المنافع التى نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظم رحمة الله الذى سخرها لنا كما ان جمالها وتناسقها تنبيء بواسع حكمته وكما ان حفظها عن التلاشى وتجددها تقر بجلالته وعظمته . »

وقال العلامة (فونتنل) فى دائرة معارفه : « ان اهمية العلوم الطبيعية لا تنحصر فقط في اشباع نهمة عقولنا ولكن اهميتها الكبرى هى رفع عقولنا الى خالق الكون وتحليتنا باحساسات الاعجاب والاجلال الواجبة لذاته المقدسة . » ولو شئنا لملأنا من

---

(١) و (٢) من كتاب ثمرة الحياة للاستاذ (چون ليبوك) ترجمة الفاضل حسن افندى رياض

مثل هذه الاقاويل مجلداً ضخماً وكلها ألسنة ناطقة بأن العلم رائد الايمان ودليل الهدى الى الرحمن . واما الذين يثرثرون بامثال ما نقلناه من الشبه الالحادية مع عزوهم انفسهم الى العلم الطبيعي فهم رجال لم ينالوا من العلم الا شعاعاً ضئيلاً حائداً عن سيره الطبيعي كما وصفهم الاستاذ (كاميل فلامريون) فصادف ذلك الشعاع منهم فطراً سقيمة وقلوباً دادت من جراثيم الشهوات ففعل بها ما رأيت . ونحن لا ننكر ان العلم الطبيعي الناقص اذا صادف الفكر القاصر والقلب الناكص احدث للانسان مرضاً معنوياً شاقاً كثير التعاصي والى هذا المعنى يشير ابو علم الطبيعة الاستاذ (باكون) : « ان العلوم الطبيعية اذا رشفت باطراف الشفاه ابعدت عن الله ولكنها ان شربت عباً اوصلت اليه . »

ومع ذلك فليس العلم الطبيعي منحصراً في هذا الجزء الصغير الذي استطاع ابن آدم ان يدركه من مظاهر الوجود من يوم حبب اليه البحث عن علل المشاهدات الى الآن . ان ما نلناه الآن من العلم في مدى هذه الالوف المؤلفة من السنين لا يكاد يساوي قطرة مما خبأ للانسان في عالم المستقبل ومن يعش ير اعاجيب لو حدث بها الآن اعلم العلماء لما تصورها . الله اكرم وارحم من ان يدع هذا النوع الضعيف القوى هدفاً لمتعاكسات وجداناته وغرضاً لمتشاكسات امياله واحساساته . الانسان يزيد كل يوم علماً ويرق مع ذلك قلباً ويدق شعوراً ويكون عقله ادخل في ميدان المعقولات وفكره انفذ الى مجالات المدركات وقد يترقى بعض افراده فيفرض ما لا طاقة له بادراكه توصلاً الى لباب اللباب من الحقيقة وهرباً من ألم الجهل باشد النقط ملامسة لحياته وامياله . مع هذا الترقي المتوالي المحسوس لم يحرمه الخالق الحكيم جل شأنه مما يبل اوام مطامحه وينقع اوار مطامعه فلا تجده خطا خطوة الى الامام حتى اوسع الله امامه من الباحات ومهد له من الساحات ما لا يستطيع معها ان يدعي ضيق المجال ولا حرج المضمار . هكذا عهدنا الانسان وهكذا عهدنا رحمة الله بالانسان في كل زمان وفي كل مكان . ومن اظهر دلائل رحمة الله بالبشر واوضح اثر من آثار قهاريته في القرن التاسع عشر تلك المسألة التي يسمونها (الاسبيريتزم) اي استحضار الارواح فانها احدثت من الآثار الباهرة ما لم تحدثه ظاهرة علمية اخرى على الاطلاق

﴿ المادة وما وراء المادة ﴾

(لا الحاد بعد اليوم)

ان من يطلع على ما كتبه بعض علماء المادة في القرن الثامن عشر ومقدمة التاسع عشر يخيل له ان مستقبل الاعتقاد بوجود النفس والآخرة محفوف بالمخاطر وانه سيؤول الامر بالناس الى نبذ هاتين العقيدتين والتيقن بأن المادة هي مصدر الحياة وموردها وان دار الثواب والعقاب ليست الا من موضوعات العقول البشرية . وفي الواقع أخذت هذه الفكرة السيئة تنتشر بين الطبقات المتنورة في اوروبا انتشاراً ادى كثيراً من الكتاب الى المجاهرة بها على رؤس الاشهاد والمشافهة بها في كل ناد وكان العلماء المضادون لها من اهل الوجدان السليم قاصري الحجة امام اولئك الذين يصرحون بأنهم لن يقبلوا نظرية في العلم الا اذا كانت مما تقبل الامتحان باحدى مشاعر الانسان . ولا مشاحة في انه لو كان الحال دام على ذلك المنوال لكان الامر آل اليوم الى فشو الالحاد دفعةً واحدة وطروء اليأس على الافئدة البشرية من الحياة الخالدة . ولا يخفى ما كان ينبني عليه من الفساد الاخلاقي الذي هو ميكروب السل الاجتماعي . ولكن خالق هذا الكون العالم بما سينتهي اليه حال الجمعية البشرية الضئيلة من الخلل والخطل من جراء ذلك المذهب المادي خلق بازاء هذه الحركة الشيطانية عقبةً وقف امامها غطاريف المادة حيارى لا يحيرون جواباً ولا يرجعون خطاباً . والتزم من رأى تلك العقبة منهم الى تطليق مذهب المادة بتاتاً واقامة الادلة الحسية لاقرانه بانهم عن الحقيقة ضالون وان الروح لها وجود متميز عن الجسم وان الآخرة لاشك فيها . وما أحسن ما كتبه الدكتور الالماني الشهير (كارل دوبرل) في مجلة (ذوكنفت) الالمانية . قال : « ان العلوم الطبيعة قد تجارت على نكران خلود النفس . فعاقبها الله بأن حكم عليها بأن تكون هي نفسها التي تقيم على ذلك الخلود البرهان القاطع . »

ما هي تلك العقبة التي اصطدم بها مذهب المادة فارتد طرفه خاسئاً وهو حسير ؟ هي ظهور طائفة الروحيين الذين يزعمون الاتحاد بارواح الموتى ومكالمتهم ويعملون بواسطتهم

من الخوارق ما لا يصدقه الا من كان على مرأى منهم ومسمع (١)

كاتى ببعض القراء من ذوى الافكار الحادة ينكر على ذلك و يعده من باب الخرافات التى لا تليق ان تسطر على صفحات الكتب . أقول مهلاً مهلاً فسترى ان أعضاء هذا المذهب الذين بلغوا الآن نحو العشرين مليوناً ليسوا الا من رجال العلوم الطبيعية والعقول النقية . قال المسيو (جان فينو) مدير مجلة المجلات بعد ان ذكر عدد الروحيين «ولنضف الى هذا صفة أشياع هذا المذهب فهم اما علماء او اساتذة صناعيون او اطباء او مهندسون» وقال فى موضع آخر « ونحن مع ثنائنا على الذين يريدون كشف أسرار المشعوذين منهم لا يجب ان ننسى ان يوجد بجانب هؤلاء رجال اذكياء من الطبقة الاولى وذوو ذمم طاهرة لا يشك فيها وكيماويون وطبيعيون وعلماء مثل (كروكس) و (ونير) و (ولاس) و (زلنر) و(اوليفيه) و(لودج)و(باريت)و(دومرجان)و(بوتليروف) الخ الخ ولا يصح ان يفرض ان هؤلاء الرجال يستعملون الغش والتدليس لانجاح الخرافات التى أهبطت كثيراً من العظمة الروحية . كما انه من الصعب ان تتهم هؤلاء العلماء بالبساطة فان دقتهم الشديدة في التجارب العلمية هى أشهر من ان تذكر » اه

لما انتشر هذا المذهب بين علماء أوروبا تألفت سنة ١٨٦٩ جمعية من اكابر علماء لوندره لفحص هذه الخوارق فحصاً دقيقاً علمياً . وكانت هذه الجمعية مركبة هكذا (جون لبك) رئيساً لها . (توماهكسلى) أشهر علماء انكلترا و (لويس) الفسيولوجي الطائر الصيت وكيلان لها . ومن اعضائها (الفريدرسل ولاس) وهو نديد (دارون) الشهير وزميله و (مرجان) رئيس الجمعية الرياضية و(فارلى) رئيس مهندسى كومبانيات التلغراف و (جان كوكس) المتشرع الفيلسوف و (اكسون) استاذ فى كلية اكسفورد الخ . فلما تكونت هذه الجمعيـــة المهمة اشرأب الناس من كل صوب الى معرفة نتائج

---

(١) هنا يجب علينا ان نفصح للقراء بأننا لا ندعي مع السواد الاعظم من اتباع هذا المذهب بأن خوارق العادات التى سيراها القراء منسوبة للارواح كما اننا لا ندعى مع رجال الدين هناك انها معزوة للجن بل نتبع طريق الحياد اقتداء بكثير من العلماء الذين كلفوا بهذا المبحث وقالوا ان تلك الخوارق منسوبة لقوة عاقلة موجودة حقيقة ومتميزة عن المادة وقائمة بدونها « وما يعلم جنود ربك الا هو »

ابحاثها لعلمهم ان حكمها لا يقبل استئنافاً فاستمرت فى الفحص الدقيق ١٨ شهراً وكانت النتيجة تأكيدها صحة تلك الاعمال وكتبت بذلك تقريراً مطولاً منه هذه العبارة « ان الجمعيـة اقتصرت في تقريرها على الاعمال التى شاهدها كل الاعضاء مما كانت محسوسة لمشاعرهم وكانت صحتها مقترنة بالبرهان القاطع . ان اربعة اخماس الاعضاء ابتدأوا البحث وهم فى أشد درجات الانكار لهذه الاشياء ومعتقدون قلباً وقالباً انها ليست الا نتيجة الغش او الوهم او بالاقل نتيجة العمل الاضطرارى للاعصاب . ولكن بعد ان وضحت لهم هذه الاشياء وضوحاً تاماً فى شروط نفت كل تلك الفروض وبعد تجارب دقيقة جداً تكررت مراراً لم ير هؤلاء الاعضاء المنكرون بداً من اعتقاد ان هذه الخوارق حقيقية رغم انفهم » الخ وهذا هو (كروكس) الطائر الصيت رئيس الجمعيـة الملوكية البريطانية قد اكد فى خطبته التى تلاها يوم توليه الرئاسة انه لم يزل كما كان من منذ ثلاثين سـنة يؤكد انه يعتقد بوجود قوة في الطبيعة متمتعة بعقل وارادة ومتميزة عن المادة . وهذا هو الدكتور (لمبروزو) أشهر البحاثين فى الجرائم بعد ما وسم فى مؤلفاته الروحيين بالجنون اقر بغلطه . وألف كتاباً قال فى آخره ناصحاً لغيره « ولنحذر من ادعائنا دقة العقل واعتقاد ان كل الناس من قبيل المخرفين والظن باننا نحن فقط العلماء فان ذلك يوقعنا فى الضلال » وهذا هو الدكتور (جورج سكستون) الخطيب الانكليزى الشهير كان اقسى النـاس قلباً وامضى العلماء لساناً على هذا المذهب ثم حبب اليه ان يدرسه فاستمر فى ذلك ١٥ سـنة ثم انتهى امره باعتقاد صحته وصار الآن من كبار اشـياعه ومشيعيه وهذا هو الدكتور (شمبير الشهير) بعد ما كافح هـذا المذهب مدة مديدة فحصه واعتقد صحته وكتب اقراره بغلطه السابق فى مجلة (سبرنوالى مجازين) وكذلك كان حال الدكتور المشهور (جمس جالى) .

وقد تألفت جمعية فى انكلترا وامريكا تحت رئاسة الاستاذين الشهيرين (هيزلوب) عن امريكا والدكتور (هودسن) عن انكلترا . فاستمرت هذه الجمعية فى الفحص والبحث نحواً من اثنتى عشرة سنة ثم اعلنت اخيراً في سنة ١٨٩٩ انها قد اقتنعت بصحة تلك المشاهدات واعتقدت انها فعل ارواح الموتى . وقد ورد في المجلة الروحية بعض من افكار رئيسى هذه الجمعية نترجم منها ما يأتى :

قال الاستاذ (هيزلوب) : « أؤمل ان اثبت بعد مضى سنة للعالم اجمع ببراهين لا تحتمل شبهه انه يوجد حياة بعد هـذه الحيـاة . ثم قال : وقد رأيت بعيني خوارق ومدهشات حقيقية ليست منسوبة للتدليس ولا للوهم . »

وقال الاستاذ (هودسن) : « العالم على وشك رؤية حوادث خطيرة جـداً . فأؤمل انه بعد مضى سنتين او اقل اهدى للعالم اجمع تفسيراً جديداً لنواميس الحيـاة الانسانية ولهذه الديانة القديمة التى لا يمكن ان يعارضها دين ولا ان تصادمها طائفة من الطوائف . ثم قال : فسيتضح كل شيء للنوع الانسانى الذى يئن ويتألم من الشكوك ويتذبذب معها الى هنا وهناك . ثم قال : واذا كان الاستاذ (هيزلوب) قد أعلن انه تحادث مع ارواح الموتى فانه لم ينطق الا بحقيقة نقية . »

ولما قابله احد مكاتبي الجرائد وسأله عن سبب ايمانه اجابه قائلاً :

« قدابتدأت ابحاثى انا والاستاذ(هيزلوب) من منذ اثنتى عشرة سنة وكنا مادين دهريين لا نصدق بشيء مطلقاً ولم يكن لنـا الا غرض واحد وهو كشف الغش والتدليس ليس الا . اما اليوم وما ادراك ما اليوم فانى اعتقد واجزم بامكان المحادثة مع ارواح الموتى . وقد قام لى الدليل على هـذا الامر بحيث لا اتصور ان يتطرق اليه الشك مطلقاً . »

وقد اشاعت بعض الجرائد يوماً ان الاستاذ الفلكى الشهير (كاميل فلامريون) قد ترك ما كان يعتقده فى الأرواح فقصده مكاتب (الفيجارو) وحصلت بينهما هذه المحادثة:

المكاتب — نهارك سعيد ياحضرة الاستاذ . ما الذى طرأ ولماذا رفضت مذهبك ؟

الاستاذ — انى لمندهش من الاشاعات التى زاعت بشأنى من منذ ايام فانى لم ارفض مذهبى مطلقاً .

المكاتب — اذن هذا الامر كذب محض

الاستاذ — يقيناً . فانى ادرس دائماً هذه الظواهر الروحية وانى لمعتقد اكثر مما كنت باننا فى غاية الجهل باسرار هذا الوجود . ومع هذا فانى مشتغل من منذ بضعة شهور بعمل كتاب سيظهر قريباً اسمه : (المجهول والمسائل الروحية(١)) وسأتكلم

(١) ظهر هذا الكتاب وكان له تأثير فى اوروبا هائل فقد نفذت جملة طبعات منه في بضعة اسابيع وقد ترجمنا خلاصته فى الحياة

فيه بالخصوص على ظهور ارواح الموتى » ثم انتقل بهم الكلام الى مسائل فلكية فقال الاستاذ كاميل : « فى هذه المناسبة اقول لك انه يوجد مسائل مهمة (يعنى الاسبرتزم) يجب ان تدرس وهى اولى بالعناية من كل المسائل الفلكية . وسأستمر على درسها باستقلال وصداقة . »

قال الاستاذ (كروكس) الذى تولى رئاسة الجمعية الملوكية العلمية الانجليزية وهذا اللقب وحده يكفى فى تعريف اهميته ويغنى عن سائر الالقاب قال امام مئين من اقرانه فى الجمعية فى مناسة الكلام على الاسبرتزم : « انا لا اقول هذا ممكن بل اقول لكم انه حقيقة موجودة . وقال في كتابه المسمى (الابحاث على الظواهر الروحية) الذى طبع عشرات من المرات : « وحيث انى متحقق من صحة هذه الظواهر فمن الجبن الادبى ان آبى الشهادة لها بحجة ان كتاباتى قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئاً فى هذا الشأن ولا يستطيعون لما علقوه من الاوهام ان يحكموا عليها بانفسهم . اما انا فسأسرد بغاية الصراحة ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة المدققة . »

ومن المؤمنين بهذا المذهب الدكتور (جورج سكستون) الانجليزى . هذا الدكتور يعد ركناً من اركان النهضة العلمية فى هذا العصر وكان فى مبدأ امره من اشد اعداء هذا المذهب وقد كان كثيراً ما يجرد عليه عضباً من لسانه مرهفاً حتى كاد بفصاحته ان يتغلب على شهادة الحس عند أولئك الباحثين فخشى الكل تأثيره لا سيما ولم يكن من الرجال الذين يمكن اقناعهم بشيء لانه كان مشهوراً بشدة الانتقاد والتشكك . ولكن لامر يريده الله حبب اليه بحث هذا المذهب فظل يحاوله خمسة عشر سنة لا ليعتنقه ان كان صحيحاً ولكن ليجد الوسيلة التجريبية الى دحضه فلم يسعه رغم انفه الا الانصياع للحق واعتناقه وكتب مقراً بغلطته عن نفسه يقول (١) : « انى تحصلت فى بيتى الخاص وبمعزل عن كل واسطة (للتحضير) غير اصحاب لي لديهم قوة استحضار الارواح . على البرهان الذى يستحيل دحضه (تأمل) والذى هو من طبيعة تؤثر على كل عقل ثابت بأن المخاطبات التى حصلت عليها هي من احباب واقارب ميتين »

(١) كما رواه عنه الاستاذ (روسل ولاس) في كتابه عجائب العصر الحالى

اما الاستاذ لودج الذى يلقبه العلماء (دارون الطبيعة) فقد وقف امام الجمعية العلمية الانجليزية وقفة الذين لا يخشون فى الحق لومة لائم وترجى اخوانه ان يهتموا غاية الاهتمام بهذه المسائل الروحية التى هي كما يقول تأسر الباحث بغرائبها المدهشة اسراً. ومثل هؤلاء كان حال الدكتور (شامبير) الذى له القدم الراسخ فى العلوم الطبية والدكتور (جمس جلى) صاحب كتاب (القانون الصحى للامراض المزمنة) الذى طار صيته فى جميع اقطار العالم الطبي . ومثلهم الاساتذة (اكسون) استاذ كلية اكسفورد اشهر المدارس الانجليزية و (سير جون كوكس) الفيلسوف المتشرع الانجليزى الشهير. والاستاذ (باركس) الجيولوجي الانجليزى الشهير . كل هؤلاء غير الثلاثين عالماً الذين كلفتهم جمعية العلوم بتحقيق خوارق هذه المسألة كما تقدم تفصيلاً قبل قليل .

وكان المستر (جلادستون) من كبار المصدقين بهذا المذهب فقد قال في بعض كتاباته كما هو مكتوب في المجلة الروحية : « ادرس مشاهدات الاسبرتزم فان وجدت فيها غشاً وتدليساً فاهزأ بسائر المصدقين بها واسخر بى في مقدمتهم . »

وقال اللورد (بالفور) وهو السياسى المشهور : « عندى الاسبرتزم افضل من السياسة لانها تفيدني اكثر منها . » ونحن لم ننقل هذين الرجلين الاخيرين الا لكونهما معدودين من رجال العلم .

وقال العلامة (كروموبل قارلى) المتقدم ذكره : « ان الشتائم والسخرية التى تكبدناها (في سبيل الاعتقاد بالاسبرتزم) لم تأت الا من جهة الذين لا يحصل لديهم اقدام على البحث والتنقيب الا بعد معاداة ما يجهلونه . » (١)

وكتب الاستاذ الجيولوجي الشهير (باركس) في مجلة (اتلينس اوف انقستيجشن انتو مودرن سپريتوالیزم) قائلاً : انه قبل ان يعتقد حقية الاسبرتزم قرأ كل كتاب الف للدفاع عنه او في دحضه وجادل كل متكلم فيه ثم جرب مشاهداته بنفسه مدة عشر سنوات . قال : « وبعد هذا كله استطعت ان اتكلم في مشاهداته واخطب به بعلم ودراية . »

وكتب العلامة (اجست مورجان) المتقدم ذكره في مجلة (فروم ماستر واف سبريت)

(١) المجلة الروحية

قال : « انا مقتنع (بصحة الاسبرتزم) مما رأيته بعيني وسمعته باذني اقتناعاً يجعل تطرق الشك الى مستحيل عندى . وان الروحيين لعلى الطريق التى تقدم العلوم الطبيعية وليس اضدادهم الا مشخصين للذين يريدون وضع العقبات في سبيل الترقي . »

وكتب الاستاذ (كرومويل ڤارلى) الى الاستاذ الشهير (تندل) (١) يقول : « انا لندرس الآن (من الاسبرتزم) ما كان قبل الفى عام الشغل الشاغل للفلاسفة . ولو ترجم رجل من العارفين باللسانين اليوناني واللاتيني والواقفين على حقيقة المشاهدات الروحية ما كتبه رجال الماضى لرأينا ان الذى يحصل الآن ليس هو الا جانباً قديماً من التاريخ يدرسه رجال جسورون لدرجة تعلى مقام أولئك العقلاء الاقدمين لكونهم استطاعوا ان يرتفعوا عن الاوهام الضيقة التى كانت سائدة في زمانهم ويظهر لنا انهم درسوا هذه المسألة بتوسع يفوق في اشكاله الكثيرة معلوماتنا الحالية فيها . »

وقال الاستاذ (سنتون موزس) المدرس بكلية اكسفورد بلندره بعد ان فحص الاسبرتزم عدة سنين هو وطائفة من رجال العلم معه . قال : « ان وضوح وجود هذه القوة المحكومة بعقل يرتكز على ما يأتي : (ا) وضوحها لحكم الحواس . (ب) تكلمها غالباً بلغة يجهلها المستحضر . (ج) سمو الموضوع الذى تتكلم فيه على معلومات المستحضر غالباً . (د) ثبوت استحالة انتاج هذه النتائج بواسطة الغش فى الشروط التى حصلت فيها . الخ »

وقال الاستاذ (كروكس) احد رؤساء جمعية العلماء الانجليزية : « انا اقول بغاية البساطة كل ما رأيته وكل ما ثبت لى بالتجارب المتكررة المدققة . » . . . . « وانا لا اقول ان هذا ممكن ولكنى اقول انه ثابت محقق . »

وقال العلامة الفسيولوجي (روسل ولاس) مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعى مع (دارون) فى كتابه المسمى (عجائب الاسبرتزم الحالى) : « لقد كنت دهرياً صرفاً مقتنعاً بمذهبي تمام الاقتناع ولم يكن فى ذهنى ادنى محل للتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها . ولكنى رأيت ان المدهشات الحسية لن تغالب . . . . فانها قهرتنى واجبرتنى على اعتبارها اشياء مثبتة قبل ان اعتقد نسبتها الى

(١) كلا هذين الرجلين من كبار رجالات الانجليز

الارواح بمدة طويلة . ثم اخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلي شيئاً فشيئاً . ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضاً بطريقة لا يمكن التخلص منها بوسيلة أخرى . (اى بغير نسبتها الى الارواح) وقال الاستاذ (اليوت) رئيس جمعية العلماء الاميريكية فى مجلة (انال بسيشيك) ما يأتي : منذ مدة وجيزة كان يشق على الأمر كلما افتكر في اني سأكون كاتباً لتاريخ مثل هـذا (تاريخ مشاهدات الاسبرتزم) . ولكن اراني لا استطيع ان اخون اعتقادى بدون ان اهبط من كمالى العقلى . ولا يمكننى السكوت امام هـذه المشاهدات الحقة لئلا انسب للجبن الأدبي . »

من ضمن مشاهير انصار هذا المذهب الاستاذ (زولنر) الفلكي الالمـانى الشهير المعدود نادرة الزمان في الذكاء . اعتنى هذا العلامة بالبحث فيه ومعه الاساتذة الالمانيين الشهراء (ويبر) و (فيشنر) و (شبنر) و (التريسى)والمسيو (وندت) وكان الواسطة معهم (سلاد) المشهور . بعد شدة البحث والتدقيق اعتقد هو ورفاقه صحة الاسبرتزم كما اعتقدها الوف غيره من العلماء . ولم يكد ينتشر اعتقاده بذلك المذهب حتى تصدى له الاساتذة (فيركو) و (هلمولتز) و (هيكيل) ونشروا في بعض الجرائد العلمية ان الاستاذ (زولنر) قد انخدع وانغش وكادوا يؤثرون على مقامه العلمى تأثيراً سيئاً . فبرز اليهم (زولنر) ودعاهم لمناظرته ثم نشر كتابه المسمى : (اوراق علمية) اثبت فيه بغاية الوضوح والدقة مارآه بعينيه هو ورفاقه من المشاهدات الحسية . فلم يسع اولئك الاساتذة الا السكوت والانهزام أمام تلك الحجج الناطقة . »

كتب الاستاذ (شارل ڤوڤتى) في كتابه المسمى (الوحي الجديد — الحياة) يقول : « لما فقد الفكر قدرته على التصـديق بوجود الارواح صارت منابع الحياة الاخلاقية مهددة بالغيضان وأحست الجمعية الانسانيـة من نفسها بانها قد دخلت في دور الفتن والانحلال الذي يجب ان يعقبه الخراب التام . ولكن لما اشرقت في الاذهان هذه الفكرة الجديدة (الاسبرتزم) — وان لم تكن بينـة الحدود للآن — أحست النفوس بقرب حدوث تغير جديد في الافكار . »

في المؤتمر الاسبريتى العام الذي انعقد في لوندره ٢٢ يونيه سنة ١٨٩٨ قام العلامة

(دوروتاش) وتلا مقالة بديعة عنوانها (حدود الطبيعة) جاء منها : « والحاصل فان هذه المشاهدات الخارقة للعادة والتي يغضب النطق بها رجالاً يحسبون انفسهم علماء بجنهم الكثير او القليل في بعض الفروع العلمية ليست هي بالنسبة الينا الا امتداداً للمشاهدات التي رأيناها بانفسنا وصار الشك فيها من قبيل المستحيلات . » وقام الاستاذ (لودج) الرياضي الشهير الذي يفخر به الانجليز في مؤتمر جمعية تقدم العلوم الانجليزية الذي انعقد في سنة ١٨٩١ وتلا مقالة كان لها تأثير عظيم في العالم كله قال منها مشيراً للاسبرتزم : « ان الحد الفاصل بين العالمين المادي والروحاني قد قرب أن ينهار كما انهارت فواصل كثيرة غيره . وبهذا سنصل الى ادراك سام على وحدة الطبيعة . وان الاشياء الممكنة لا حد لها كما ان الوجود نفسه لا غاية له ولا نهاية . وان الذي نعلمه الآن منه لا يساوي شيئاً بالنسبة لما غاب عنا علمه . ولو اكتفينا بما اكتشفناه للآن واقتنعنا به نكون قد خنا اقدس الواجبات العلمية . »

اجتمع في سنة ١٨٩٣ عند الاستاذ (فنزى) في ميلان الاساتذة (الكسندر كزاكوف) مستشار القيصر الروسي ومدير مجلة (بسيشيش ستوديان) والاستاذ (جيوفاني) مدير مرصد ميلان الفلكي والدكتور الالماني الطائر الصيت (كارل دوپرل) والاستاذ (انجلو بروفيريو) والاستاذ (جيوزب جيروزا) مدرس الطبيعيات في مدرسة (بورتيسي) العليا والاستاذ الشهير (شارل ريشيه) المدرس بمدرسة باريس الطبية ومدير المجلة العلمية والاستاذ (شارل لومبروزو) . اجتمع كل هؤلاء العلماء وفحصوا المشاهدات الاسبريتية في سبعة عشر مجلساً وكانت الواسطة (مدام اوزابيا بلادينو) فكتبوا تقريراً مكتوباً برمته في مجلد سنة ١٨٩٣ من المجلة الروحية وفيه يشهدون علناً أمام العالم كله بان كل ما شاهدوه من الخوارق لا غش فيه ولا تدليس مطلقاً وان هذه المشاهدات جديرة بالدخول في سلك المسائل العلمية . »

تقدم قبل بضع صفحات ان الاستاذين (هيزلوب) و (هودسن) وعدا بأن يكشفا اللثام عن معتقدهما في الاسبرتزم ويثبتا للعالم براهين دامغة خلود الروح ففعل كلاهما ما وعد به وابتدأ الاستاذ (هيزلوب) فسرد مشاهداته المدققة وختمها بهذه العبارة : « لا يمكن تفسير هذه المشاهدات بغير الاسبرتزم . » اي بغير نسبتها الى ارواح الموتى .

أما الدكتور هودسن فقد كتب تقريره في الجزء ٢٢ من نشرة جمعية الابحاث النفسية الانجليزية . نقتطف منها ما يأتي مترجماً عن اللغة الفرنساوية :

قال في صحيفة ٣٩٦ : « لقد جربت (التاياتيا) بين الاحياء مدة سنين عديدة وها أنا لا اتأخر عن التأكيد بطريقة مطلقة بان الفرض الاسبريتي (اي كون هذه المشاهدات منسوبة للارواح) حق لا شبهة فيه وتدل عليه نتائجه بخلاف الفرض الاول . »

وجاء في صحيفة ٤٠٥ : « ان وضوح هذه المسائل هذا الوضوح التام قد أزال عني كل ما كان يصرفني عن التصديق بان هذه الظواهر نتيجة افعال الموتى . »

وجاء في صحيفة ٤٠٦ : « الآن لا يمكنني أن اقول بأن لدي ادنى شك او ارتياب في ان المرائي المهمة التي تكلمت عنها في الصحائف المتقدمة هي حقيقة عين الاشخاص الذين تدعي هي انها هم وانهم لم يزالوا احياء بعد تلك الاستحالة التي نسميها نحن الموت وانهم بواسطة جسم (مدام بيبر) المتشنجة يتعرفون مباشرة الينا نحن الذين نسمي انفسنا أحياء . »

أما الدكتور (جيبيه) المؤلف الفرنساوي الطائر الصيت ومعتمد الاستاذ (باستور) في مكتشفاته البديعة حبب اليه البحث في الاسبرتزم منذ زمان طويل وله في هذه المسألة كتابان جليلان جداً احدهما اسمه (الاسبرتزم) والآخر اسمه (تحليل الاشياء) . ظهر الاول في سنة ١٨٨٦ والثاني في سنة ١٨٩٠

أخذ هذا الدكتور في فحص الاسبرتزم من منذ ثلاثين سنة فدقق النظر فيه وجرب بنفسه تجارب يقصر عنها من لم يكن على شاكلته ثم الف كتابيه المذكورين على التعاقب فيرى المطالع لهما انه لم يصل الى نتيجته الاخيرة الا بعد هنات وهنات من كثرة تشككه ودقة نظره . فاذا تصفحت كتابه المطبوع في سنة ١٨٨٦ تجد انه لم يكن لذلك الوقت حاصلاً على البرهان القاطع بخلود الروح ولو كان فكره (المادي) قد تحول عن مركزه تماماً . فانه قال في مقدمته : « لنعلن على رؤوس الاشهاد باننا أول ما بدأنا درس هذه المباحث النفسية كنا نعتقد من صميم فؤادنا باننا أمام عالم من خيالات واباطيل يجب علينا كشف الستار عنها وفضحها . وقد صرفنا كثيراً من الزمن للتخلص من هذه الفكرة

(اي فكرة كونها خيالات واباطيل) . »

ولكنه مع اعترافه بأن مشاهدات الاسبرتزم ليست بخيالات ولا اباطيل لم يحصل على البرهان القاطع بخلود الروح لانه ختم عبارته بقوله : « فلنصرح اذن بفكرنا ونقول : كلا . ان كل هـذه الظواهر المدهشة التى لا يمكن تفسيرها بمقارنتها بالشيء القليل الذي نعلمه لاتثبت لنا بطريقة مطلقة ان الموت يهب الحرية للذات الانسانية المدركة الباقية . »

ولكنه لم يجبن أمام صعوبات هذا البحث ولم يكتف بهذا الموقف المشكك بل مشى للامام بقدم الشجاع الثابت الجأش ثم كتب بعد أربع سنوات كتابه الجليل المسمى (تحليل الاشياء) فصرح فيه بعقيدته حيث قال : « فى جلسات التجسد [أى التى تتجسد الارواح فيها وتظهر فى جسم يلمس ويحس] يمكن لكل انسـان ان يرى شخصاً من عائلته قد مات من منذ زمن بعيد أو قريب فيظهر له عياناً ويكلمه . نعم يكلمك بسريرتك الخاصة التى لا يعلمها غيرك وترى ان صورته لم تتغير ولم تتبـدل وأن له قلباً يخفق . ويمكنك أن تأخذ صورته بالفتوغرافية ويترك لك شكل يده بل وشكل رأسه بالجبس . كل هذه الاشياء الفتوغرافية والجبسية تبقى لديك برهاناً محسوساً دامغاً على انك لم تر ذلك فى الحلم [بل يقظة] . »

« ولتضف لك هنا ان هذا التجسد يحصل بواسطة الارواح العـاملة على قوة الواسطة المستعارة منها . فثبت من هنا لدى العلماء الذين شاهدوا هذه الآثار الخارجية الحاصلة بحضور الواسطة بأن هذه المرئيات تحتوى على البرهان المفحم الذى لا تحصل على مثله قط بأن لنا روحاً مدركة ومتميزة ومخلدة بعد الموت . »

« بعد الموت يجد الانسان فى عالم اسميه [بعد الحياة] فى حالة ليست فى الحقيقة الا ذاته الكاملة . أما هذه الحالة التى يعيش فيها الآن فليست الا حالة وقتيـة [ولا اقول بدون فائدة] . واذا أراد المطالع ان يتحقق من صدق هذه المشاهدات بنفسه فانه سيقتنع بسرعة بأني لم أبالغ فيما قلت وانه سيرى اعتقاده يقوى ويشتد على قدر ما تكون ابحاثه حازمة ومتكررة ولو كانت هذه المرئيات باطلة لحصل عكس ذلك . »

من بين الدافعين صدر الالحـاد فى اوروبا والطاعنين كبده العلامة الفلكي الطبيعي الشهير (كاميل فلامريون) فان كتاباته فى هذه المواضيع اشهر من ان تذكر من بينها

كتاب نشره حديثاً تحت عنوان (المجهول والمسائل الروحية) . بمجرد ما طبع هذا الكتاب انكب الناس على مطالعته حتى توالت منه عدة طبعات في ايام معدودة . لان الكاتب عالم طبيعي من الطبقة الاولى وفيلسوف حسي شديد العارضة . فما زال في كتابه يحاكم المشاهدات ويقارن احوالها المختلفة ويردها الى القوانين والنواميس المعروفة حتى اتضح له صحة اربع نظريات وضوحاً محسوساً أتى بها في ذيل كتابه كنتائج لمقدماته السابقة . تلك النظريات هي (١) الروح موجودة وجود كائن مستقل عن الجسم . (٢) وهي متمتعة بخصائص لم تزل للآن مجهولة لدى العلم . (٣) يمكن الروح أن تؤثر او تتأثر من بعد بدون مساعدة الحواس . (٤) المستقبل مقدر من قبل وقوعه ومحدد بأسباب ستحدثه فيما بعد . فالروح قد تدرك هذا المقدر قبل وقوعه احياناً .

هذه هي النظريات الاربع التي برهن الاستاذ الفرنساوي على حقيتها ببراهين حسية مهمة . ومن ضمن ماطالعناه في ذلك الكتاب قوله في صحيفة ٢٤٦ : « الانسان مسوق بطبعه لانكار كل ما يظهر انه مشكوك فيه وكل ما لا يعلمه وما لا يستطيع ان يفهمه . فاننا اذا قرأنا فيما كتبه (هيرودوت) او (پلين) ان امرأة كان لها ثدي في فخذها الايسر وكانت تغذي ولدها منه نضحك ونستهزئ ومع ذلك فان مثل هذه المشاهدة قد تقررت صحتها في جمعية العلماء الفرنساوية في باريس بجلستها المنعقدة في ٢٥ يونيو سنة ١٨٢٧ . وان اخبرنا مخبر بأن رجلاً وجد في احشائه ولد بعد تشريحه وان هذا الولد كان توأماً لذلك الرجل ومحبوساً في جثمانه وانه قد شاخ فيه والتحى فانا نعتبر هذا الخبر خرافة محضة مع اننا قد شاهدنا بانفسنا من مدة ليست ببعيدة مولوداً ولد ميتاً وله من العمر ٥٦ سنة . قال احد مترجمي كتب هيرودوت ولاشر « ان زعمهم ان روكسان (امرأة الاسكندر) ولدت طفلاً بغير رأس يعد من الاشياء المنافية للعقل التي نتيجتها ان تهبط من شرف كثيزياس (مؤرخ يوناني) » ومع ذلك فان جميع القواميس الطبيعية في هذا العصر تثبت الاطفال الذين يولدون بغير رؤوس . كل هذه الامثلة وكثير غيرها تدعونا الى الاحتياط والتبصر . فان الذين ينكرون الاشياء بدون تحفظ هم الاغبياء الجاهلون . وقد كان يمكننا ان نكثر من هذه الامثلة ولكن رأينا ان ذلك غير مفيد لقرائنا الافاضل فلنكتف بقولنا ان المشاهدات التي نقلناها هنا مطابقة للاسلوب التجريبي

نفسه تمام المطابقة . »

هذا كله يدل على ان فى الوجود حركة اعتقادية مهمة جداً ستؤدى الى نتيجة غير منتظرة تحقيقاً لوعد الله تعالى : « كتب الله لاغلبن انا ورسلى ان الله لقوى عزيز » .

سبحانك اللهم ما اكبر سلطانك ! ان هؤلاء الرجالات العظام الذين نقلنا اقاويلهم فى مكالمة الأرواح لو قيل لاحدهم قبل ردح قصير من الزمن بأن له روحاً لضحك من عقل مخاطبه واستهزأ به وعده واحداً من المتأخرين فى العقل ولأبى ان يحاوره فى هذه المسألة الا بالنكات اللطيفة تمضية للوقت ليس الا . ولكن انظر الآن تجدهم يثبتون لك ما يترفع ان يقوله احد جهلة الشرقيين ويمضى احدهم ثلاثين سنة من عمره فى بحث واستحضار واخذ ورد ثم يؤلف كتاباً عقيب ذلك يقر فيه امام الملأ انه كان مادياً كافراً فاصبح الآن بفضل الاسبرتزم روحياً مؤمناً ثم ينبرى يطعن فيما كان يقول به بالامس طعن المنتصر للحق على الباطل والمغلب للفضائل على الرذائل . أليس هذا عجيب؟

نعم جلت رحمة ربي وعظمت حكمته . كم له فى تأديب البشر من وسائل وفى كبح عرامهم من ذرائع لو تدبرها الانسان لرأى بعينى بصيرته يد العناية الرحمانية ترفع الانسان مما يرتطم فيه من مهاوى سقطاته وتقيمه على نهج السبيل ووضح المحجة .

تخيل قوماً رأوا ما وقع فيه الاقدمون من الخيالات وما حملوه عواتقهم من المعتقدات وما استلزم ذلك من بعدهم عن الحقيقة التى هي ضالة الانسانية وما استدعاه من غشوتهم عن تنور الظواهر الجلية لما ران على ألبابهم من تلك القواعد الاعتقادية . قلنا تخيل قوماً رأوا ذلك باعينهم ثم انظر كيف يكون مبلغ كراهتهم لبنات الافكار التى لا يؤيدها من الواقع دليل ولا يعززها من الحس برهان . قالوا ما ذا يفيد الدليل والبرهان ان كانا عقليين وقد ثبت ان مدركات العقل كثيراً ما تحيد عن الجادة الحقة وتلقى بالانسان الى متائه من الشطحات لا يميز فيها بين الحقائق والأباطيل . ما الذى اوقع الاقدمين فى اوهاق الخرافات فحجبوا بذلك عن انفسهم انوار العرفان ؟ ما الذى دهورهم فى تيهور المدركات السافلة والتصورات النازلة فسدوا دونهم طريق الحقيقة التى هى الغاية لمحاولات الانسان؟ أليس لكونهم اطلقوا لافكارهم عنان الجولان ولعقولهم حرية الجزم فى الاحكام ؟ أليس لكونهم عموا عما يتنازع الوجدان من المؤثرات وما يتقاسمه من الاعراض التى تجعله فى

واد والحقيقية في واد ؟

ثم قالوا اذا كان الأمر كذلك وكان محض الدليل العقلي غير كاف في اثبات شيء او نفيه فلا سبيل الى معرفة الحقيقة الصحيحة الا اذا سندها من الحس دعامة ركينة وكان لها من الواقع شهادة قوية . فهم اذن لا يسلمون بغير امتحان ولا يرضخون لغير المحسوسات وينبذون كل بحث يتعلق بمنشأ الوجود ومصير الانسان كما نقلنا ذلك في الفصل السابق عن احد زعمائهم الاستاذ (ليتريه) وعليه فمدار فلسفتهم على العلوم الحقيقية التي موضوعها الموجودات والنواميس التي تتسلط عليها . فقسموا العلوم الى ستة اقسام : الفلك والطبيعيات والكيمياء والرياضيات وعلم الحياة وعلم الهيئة الاجتماعية وقالوا ان هذه العلوم سلسلة مؤلفة من حلقات متصلة ببعضها لا تدرك الواحدة حتى تدرك ما قبلها من الحلقات واولها الرياضيات ثم ذهبوا الى ان المعارف تقطع في ارتقائها ثلاثة ادوار مهمة : (الدور الاول) الدور الديني . (الثاني) : دور ما وراء الطبيعة . (الثالث) : دور العلوم الحسية التجريبية . وهو دور الانسان الحالي .

قل لي بأبيك اذا كان هؤلاء لا يريدون ان يعتقدوا وجود اصل من الاصول او حقية نظرية من النظريات الا اذا كان لمشاعرهم الظاهرة سلطان على تحقيقها فكيف يمكنك مهما اوتيت من مواهب الجدل ودقة التعبير وحسن صياغة البراهين ان تثبت لاحدهم ان له روحاً وانه سيحيي بعد ان يموت في عالم غير هذا العالم ؟ كيف تستطيع مهما كنت بليغاً ان تقنع احدهم بوجود عوالم نورانية كعالم الملائكة واشياء اخرى وراء ما ندركه بمشاعرنا الغليظة ما دام لا يريد ان يصدق بعقله الا اذا لمس بيده ؟

« شاهت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما » ان الذي خلق الانسان على هذه الصورة من الطماح الفكري والجماح الاحساسي لا يعجزه ان يرده الى العدل كلما شطح ويلفته الى الهدى كلما جمح . سنة بالغة وحكمة غير متناهية !

ان الذي قال في محكم كتابه : « كتب الله لاغلبن انا ورسلي ان الله لقوي عزيز » يعرف من اين تقتاد العقول المستعصية وكيف تستلين القلوب القاسية وباي وسيلة تلجأ تلك الجباه العالية العانية الى السجود والاخبات امام عظمته وجبروته !

سبحان « ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » « الذي خلق كل شيء

فقدره تقديراً » الذى امهل هؤلاء الطغاة حتى ملؤا الكون صياحاً واستنفدوا كل وسعهم ومجهودهم فى الحملة على العقائد الفطرية حتى ظنوا انهم ملكوا زمام مشاعر البشر بما سنوه من الشبه والشكوك وانهم توصلوا الى اطفاء نور العقائد من القلوب ثم ارسل عليهم آية من آيات القهر والجبروت فقلبت كل ما تخرصوه رأساً على عقب وحولت مجرى افكارهم دفعة واحدة الى ما زعموا انهم ارفع من الخوض فيه فآبوا الى عقولهم وحشو أهابهم الندم والحسرة على ما غلوا فيه من قبل وعلموا ان للوجود الهاً تعنو له الجباه الشماء وتستخذى امام عرشه الهمم القعساء وان للانسان روحاً ستخرج من الجسد الى عالم ينتظرها فيه عذاب أليم او نعيم مقيم !

بالله اى فؤاد لا يمتلئ ايماناً واي احساس بشري لا يتشبع يقيناً وثباتاً حينما يرى بعينيه ان اساتذة الماديين قاموا يجأرون الى الله منيبين اليه ملتجئين الى جنابه مقرين بسابق غلطاتهم بعد ان كانوا بالأمس وليس العهد ببعيد يشمخون بانوفهم كبراً وعتواً ويتبجحون بانهم ارفع مقاماً من ان يتكلفوا بعقيدة من العقائد واسمى نفساً من ان يأسروها لدين من الأديان ؟ من كان يصدق ان مثل الاستاذ العلامة (روسل ولاس) الانجليزى وهو اكبر فسيولوجى فى العصر ومكتشف اعظم نواميس الطبيعة وهو ناموس الانتخاب الطبيعي ومساعد العلامة (داروين) فى تأسيسه مذهبه الذى كفر الملايين من العالم. قلنا من كان يصدق ان مثل هذا الاستاذ الكبير يرجع بعد تلك الكبرياء فيقول : « لقد كنت دهرياً صرفاً مقتنعاً بمذهبي تمام الاقتناع ولم يكن في ذهني ادنى محل للتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها . ولكنى رأيت ان المدهشات الحسية لن تغالب . . . . . فانها قد قهرتني واجبرتنى على اعتبارها اشياء محسوسة قبل ان اعتقد روحانيتها بمدة مستطيلة . ثم اخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلى شيئاً فشيئاً . ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ولكن بتأثير المشاهدات التى كانت يتلو بعضها بعضاً بطريقة لا يمكن التخلص منها بطريقة اخرى (اى بغير نسبتها لأرواح الموتى . »

ولقد مر بك من مثل هذه الشهادات ما لا يمكن الزيادة عليه فى مثل هذا المختصر وكل تلك الشهادات منسوبة لكبار اساطين العلم ورجال المعارف فانظر رحمك الله كيف

يداوى الله تعالى امراض القلوب ويعالج جراح الاحساسات . لما قام هؤلاء يقولون نحن لا نصدق الا ما نحس به وقالوا ما دام عالم الغيب مستوراً عنا ولا يمكن تحقيقه ، فهو ليس بموجود الا في الوهم وتذرعوا بذلك لاطفاء نور العقائد فتح الله لهم نافذة صغيرة من نوافذ ذلك العالم المغيب عن المشاعر واعطاهم القوة على تحقيقها بالحس والمشاهدة « لكيلا يكون للناس على الله حجة » كل ذلك رحمة منه تعالى بهذا النوع الانساني الذى جعله قمة ابداعه وغاية اختراعه . وكم فى المستقبل من آيات سيظهرها الله لعباده تحقيقاً لوعده في كتابه « ولتعلمن نبأه بعد حين »

﴿ الدور الرابع ﴾

« رجوع الانسان الى دور الفطرة الأولى »

(الاسلام دين الفطرة)

فحصنا فى وريقاتنا السابقة تأريخ الانسان من جهة التدين وجمعنا اطراف ذلك الموضوع بحيث لا يصعب على المطالع ان يلم لأول وهلة بما كان عليه الانسان وما آل اليه فى خلال حياته الارضية فى كل هذه الالوف المؤلفة من السنين ، وهذا الالمام مع ما هو عليه كل انسان فى ذاته وما يشعر به فى صميم فؤاده من التدافع الوجدانى يكفيه لان يعرف من سر هذه المسئلة ما لا يمكن ان يحويه كتاب او يقوم بتحريره كاتب .

ان المسئلة اللاهوتية وان كانت في نفسها مشتركة بين سائر مرامى الافئدة البشرية من ادنى زنجى الى ارقى ربانى الا ان المرامى اليها تتفاوت على قدر تفاوت المدارك والاحساسات والمناحي لها تتخالف على قدر تخالف المدركات حتى لا يتصور ان هناك نقطة تشابهها من هذه الحيثية لانها فى ذاتها حقيقة الحقائق الغير متناهية . فهى كالمركز المشترك لدوائر متداخلة تتفاضل فى القرب منها والبعد عنها الى ما لا نهاية .

لو كانت احساسات الانسان الداخلية ومشاعره القلبية محدودة الوجهة كان اقناعه

بالحقائق الواضحة اسهل المحاولات ولكن شأن الانسان بالعكس حتى صار اقناع الرجل لأخيه بصدق نظرية او بحقية قاعدة فلسفية من اصعب ما يحاوله الانسان بين ابناء نوعه ليس لكون الحقائق تتخالف بتخالف الافراد والامم كما يذهب اليه بعضهم كلاّ ولكن لتخالف تأثيراتها على النفوس المختلفة وتباين مواقعها من الافئدة المتباينة . فان للبغض والحب والغم ودرجة العلم ومجال الفكر وكيفية التصور بل وللتربية والطقس والجوع والعطش والثروة والفقر الخ دخلاً فى درجة الالمام بالحقائق وعملاً فى اشرابها للقلب حتى انك لو جشمت نفسك الوقوف على اشكال الافئدة المختلفة وما يتوزعها من مثل هذه الاحوال الغير متناهية فى صورها لرجعت وكلك اقرار بأن ذلك من قسم المحال .

نحن لا نذهب بك بعيداً . تأمل فى نفسك جيداً تر انك ميدان واسع لاختبار هذه الأمور ومجال شاسع للتحقق بطرف مما قدمناه ومن يعجز عن التدبر فى نفسه فهو عن التدبر فى غيره اعجز .

ولما كان الغرض الاول من وضع كتابنا هذا هو محاربة جرثومة الالحاد التى اخذت تنتشر فى شرقنا العزيز محاربة صحيحة وكان علمنا باختلاف المنازع وتضاربها يخوفنا دائماً من اننا ربما لم نصب مقتله ولو عند طائفة من الطوائف رأينا ان نطلق حرية القلم قليلاً فى مناح مختلفة من القول وضروب متباينة من الوجدانات لعلنا نستدرك ما عساه قد فاتنا فى ما مضى فنقول :

الانسان وما أدراك ما الانسان كائن عجيب التركيب غريب التكوين مستعد فى آن واحد لان يكون ملكاً مع الكروبيين بل وافضل منهم اجمعين وان يكون امام الشياطين وقائد الابليسين . اذا كان حاله كذلك فما هو المرشد الامين الذى يرشده الى الفضيلة وينزعه عن الرذيلة . الامر الذى لا يتأتى الا بمجاهدته لنفسه والزامها حدود العدالة . ان قال قائل قد يحتمل ان تحل الحكمة الاخلاقية محل هذه العقيدة الالهية . وتنزل النظامات والقوانين منزلة العقائد والدين نقول هات لنا أمة حالت قوانينها بين أبنائها وشهواتهم وقامت صرامة احكامها حاجزاً دون جرائمهم .

بلغت دولة الرومان ما بلغته من العظمة والرفعة ايام كانت هذه العقيدة عزيزة عليها محبوبة لديها ولما منيت ببعض الفجرة من فلاسفتها الذين أخذوا ينسفون اركان عقيدتها

ويذرونها فى اعاصير الشبه الوهمية لم يمر عليها (وهى دولة الرومان دولة العلم فى زمانها) بضع عشرات من السنين حتى انهدم بنيانها وتداعى عمرانها وتغلغل فى احشائها اقوام ليس بينهم وبين الحيوانية الا ركوب الخيول ودق الطبول (راجع تاريخ الرومان)

تدبر فى الامم المعاصرة تدبر حكيم تر ان اقواها جاهاً واكثرها للفلاح اتجاهاً هى التى تحافظ على شيء من هذه العقيدة الفطرية . ولنرجع فنقول . ان الفضيلة هي مناط السعادة البشرية ولا سبيل لثبوت تلك الفضيلة فى النفس الا بالاعتقاد بوجود الخالق . وما احسن ما قاله الفيلسوف الطائر الصيت (روسو) « كنت اظن ان الانسان قد يتأتى له ان يكون فاضلاً بدون الاعتقاد بوجود الله فاذا بى كنت واهماً حيث علمت انه لايتأتى ذلك . » اذا كنت تعلم ان الفضائل الاخلاقية (ولا برهان اقوى من شواهد الحس) هى مناط السعادة الانسانية فقل بعيشك على أى مركز ترتكز تلك الفضائل اذا خلا الوجدان من الايقان بوجود خالق مثيب على الكمالات معاقب على الرذيلات ؟ ما ذا يكون الوازع لهذا الانسان الطموح فيردعه عن اقتراف المظالم وينهنه عن التغلغل فى الجرائم ؟ ماذا يكون الرادع لشهواته البهيمية عن الوقوع فى سفاسفها الوحشية ؟ أى جريمة لا يستسهلها من خلا جنانه من هذا النور الفطري وأى خزية لايستلينها من سلب من فؤاده هذا الروح الالهي ؟ فلا تغتر بنفسك أيها الانسان ولا تخدع بما تشاهده من اللطف والدعة فى أبناء نوعك فان ألينهم عريكة واكرمهم شيمة لقابل لان يكون أقسى من النمر قلباً وأعظم من الكلب كلباً وافتك من الاسد زنداً واكثر من الثعلب مكراً وادنى من الخنزير نفساً لولا ما فى فؤاده من نور هذه العقيدة التى ترد جماح عرامه وتبل من أوامه . »

الانسان كائن مشترك بين العالم العلوى والسفلى فان نظرت اليه من حيث مادته لم تفرق بينه وبين القردة الا بفارق ضعيف . ولكنك لو واجهته من حيثية معناه فلا تستطيع ان تتصور مخلوقاً أرقى منه . وناهيك بكائن ادرك ان هناك كمالاً لا نقص معه . ورفعة يتلاشى دونها معنى الضعة . فهام بذلك الكمال هيام صرعى الهوى . وأمه كما يؤم الحجيج أم القرى . ولقد تساوى فى هذا الهيام كل عالم وجاهل وكل غبى وحكيم حتى لا تكاد ترى على الوجوه الا آثار الوجد بذلك الملتمس الاسمى والمطلب العزيز

نعم كلنا طالب ذلك الكمال الاعلى بل مسير اليه رغم انفه علم أم لم يعلم . حلم به ام لم يحلم . والا فأرني فؤاداً ارتاح الى غاية بلغها . او وجداناً سكن اضطرابه عند نهاية وصلها ؟ أرنى غنياً قنع بثرائه ؟ او عظيماً رضى بعاياته ؟ أرنى عالماً اكتفى بمعلوماته ؟ او مخترعاً اجتزى باختراعاته ؟ قل لى بعيشك ما هذا النهم فى المطالب ؟ وما هذا الشره فى الرغائب أما للقناعة معنى فى وجدانك أيها الانسان ؟ أما للرضاء ظل فى فؤادك الولهان؟ أراك لا تنال حتى تتطلب . ولا تسكن حتى تدأب . كل حياتك اطماع . وجميع أوقاتك مساع . اما لاطماعك غاية ؟ اما لامانيك نهاية ؟ كلا . بل اراك لو قدرت على ما فى الارض تقتحَ الى التسلط على ما فى السماء . ولو نلت مطلوبك فى السماء . تطلعت الى ما بعدها من الاشياء . فلا يرضيك والحالة هذه الا نهاية لا يدرك غورها ولا يتصور آخرها . ان كان الامر كذلك فهل فى هذه الارض الحقيرة ما يكفى لسد عوز اطماعك؟ او يشبع نهم امانيك واميالك ؟ ما الذهب الابريز ؟ ما الجوهر العزيز ؟ ما القصور الشامخة ؟ ما الرياض اليانعة ؟ ما الكهرباء الساطعة ؟ بجانب هذه الاطماع الواسعة ؟ والاميال الجائعة ؟ بل ما الدنيا بما فيها بجانب هذه المرامى البعيدة ؟

اذا كان وجدانك كما تراه بعيد مرامى المطالب . شديد الكلف بسوامى الرغائب . وكانت الدنيا بما فيها لا تكفى لاقناعك ولا تجزى بعض اطماعك . فهل جئت للارض لتتعذب بطلب ما لا تناله ؟ وتهيم بما لا تحصله ؟ ان كان كذلك فليمت الانسان صريع الغرام . طعين الهيام . وليقض ايامه بحسرة . وعمره بحرقة . ما ذا يتلمس وجدان الانسان يا ترى من وراء كل هذه المعامع القلبية والى اي شيء تتوق معناه الانسانية ؟ أنسأل الفلاسفة الماديين ام نسأل الفلاسفة الروحيين ؟ كلا لا هؤلاء ولا أولئك نسأل الوجود نفسه فان لسانه ابلغ لسان وبيانه اوضح بيان وبرهانه ادمغ برهان ؟ فنقول :

ندع الداروينيين يقولون ان اسلاف الانسان هم بنو (الشامپنزيه) او بنو (الارنج والجوري) من القردة ولنذر نصراء الخلق المستقل يقولون ان الانسان صوره مبدعه مستقلاً برأسه وانه منزه عن كل قرابة حيوانية اذ ليس من غرضنا في هذه العجالة ان نلم باطراف الاختلافات الفلسفية على اصل الانواع الحية لان ذلك فضلاً عن

كونه يذهب بلباب مبحثنا فى ظلمات هذه الجدليات الفارغة لا يكون حاصلاً على تلك المزية التى تجعله صالحاً لارضاء كل المذاهب المتعاكسة وتناول كل درجات المدارك المتضاربة ونكون غير حاصلين الا على رضاء حزب من احزاب كثيرة وليس ذلك فى شيء من الخطة التى اختططناها لانفسنا من الهيمنة على العقائد الاسلامية من اسمى الطرق وأدعاها الى رضوخ كل فكر طامح كما يناسب درجة ما لدينا من محكم كلام الله القديم الذى يعلو على كل جدل ويسمو على كل تردد (ولله الحجة البالغة) .

قلنا دع الداروينيين واضدادهم واعتبر الانسان من يوم استحقاقه لمرتبة الانسانية سواء بظهوره على مرسح هذا الوجود من اول نشأته على قول اصحاب الخلق المستقل او يوم انتقاله من حضيض الحيوانية الى منصة الانسانية على قول اصحاب النشوء ترى انه أحس بسيادة قوانين ونواميس على وجوده ليست من نوع قوانين ونواميس عالم الحيوان ولا هي امتداد منها . تراه ادرك ان هنالك حقائق يجب عليه الوصول اليها لقيام بناء حياته عليها وميز بين الاشياء قبحاً وجمالاً وبين افاعيلها خيراً وشراً وان ثمت قانوناً اخلاقياً يلزم ان يسود عليه سيادة تامة لشعوره بضرورته على حفظ ذاته ونوعه من العطب .

يقول قائل ان هذا الشعور يستلزم ادراكاً اسمى مما يلزم ان نراه عند الانسان من اول دخوله الى هيجاء هذا العالم الهائل بعد خروجه من مجاهيل ذلك العالم الغيبي . فمن اين له هذا الاحساس السامي الذى هو بعينه كل ما يمتلكه اليوم اكبر فيلسوف فى آخر القرن العشرين ؟ نقول ان شعور الانسان بوجود حقائق وراء ما يلمسه وتميزه بين الخير والشر والجمال والقبيح من الافعال والاشياء واحساسه بلزوم قانون اخلاقى يلزم ان يسود على حركاته وسكناته ليس من باب الادعاآت المجردة عن البرهان الحسى فانه فضلاً عن كونه من المميزات الاولية بين الحالة الحيوانية والحالة الانسانية لها من التاريخ اكبر دليل يؤيدها وذلك اتحاد فلاسفة التاريخ على انه مهما صعد الانسان ببحثه الى عصر من اعصار الازمنة الانسانية الاولى فلا يستطيع ان يصادف أمة غير متدينة . والدين كما لا يخفى على ابسط احواله يستلزم شعوراً من الانسان بحقيقة وراء المحسوسات وتميزاً بين قبيح وجميل وخير وشر وعلى هذا الشعور وهذا التميز ينبنى

ولا شك ما نسميه بالقانون الاخلاقي . ولا ننسى هنا ان نقول لا يلزم من ذلك ان تكون تلك الديانات بجميع فروعها مصيبة كبد الحقائق المطلقة ولكن ذلك لا يمنع من الجزم بان ما قدمناه هو لازم من لوازم الفطرة الانسانية ولو جردت ذلك عنها فاي فرق تراه بين الانسان والحيوان ؟ قذف بالانسان من عالم يجهله في جملته وتفصيله الى عالم لا يلم منه الا بما تسمح له به مشاعره القاصرة الضئيلة . اينما يوجه طرفه فلا يرى الا مجاهيل اذا انفذ وراءها رائد البصيرة عاد ومعه من لوازم الجهل بها ما يزيد احساسه حيرةً وولهاً ويزكي وجدانه شغفاً وولوعاً . يرى في نفسه غريزة كشف الاستار عن الاسرار او بعبارة أخرى ابتكار ما يقيم اود ذاته من غذاء ومسكن وسلاح يدافع به افاعيل الطبيعة المحدقة به من كل جانب والتي تناوئه بجميع الوسائل . فتارة بزمهريرها وأخرى بحرورها . مرة بحيوانها وأخرى بنباتها . يوماً بانهارها وآخر بجبالها وتلالها . وكل حين بما ركب فيه من اجزائها . فوجد الانسان نفسه بين حركتين قويتين لا دافع لهما . اولاهما حركة من الخارج الى الداخل وثانيتهما حركة من الداخل الى الخارج . فالاولى تأثير الاشياء المحيطة به على نفسه بواسطة الحواس والثانية اثر النفس على تلك الاشياء بواسطة الارادة .

من هنا ثارت ثائرة الحرب العوان بين الطبيعة والانسان . فصاحت الطبيعة في جنودها صيحة ارعشت الجبال الشم فرقاً ودفعت تيارات الانهار وهلاً واسقطت الصواعق خشية وذهولاً ونادت في افاعيلها ان استعدي لكفاح هذا الكائن الضعيف الظاهر ، القوي مباطن ، الشديد الوطأة الخطر الخطة ، الذي يريد ان يستخدم عظمتي ويستذل قوتي ويطامن من مقامي . اما الانسان فلم يفعل حيال تلك الصيحة المزعجة التي نفذت الى اعماق كل ذرة من ذرات جثمانه واستنزلت كسف الخشية على وجدانه الا انه ادرك انه شيء وكل هذه الطبيعة شيء آخر اذ لو كان منها لما وجد كل هذا العداء الهائل وللقى راحته فيها كغيره تحت ظلها الوارف . هذا الشعور دعاه رغم انفه الى الاستقلال بنفسه والتدبر فيها وبعثه الى الفكر في ذاته وفي سائر مراميها ثم جرد منها مسيطراً على امياله منتقداً على افعاله لكيلا يكون وراء اندفاعه خلف مطلوباته الكثيرة منفذاً لأسنة الطبيعة المشرعة اليه من كل جانب . فكان يرى نفسه كانها نفسان ! نفس

تحسن له الجرى وراء المطالب والسعى فى اعقاب الرغائب ونفس أخرى ترده عن الاندفاع قبل الاحتياط وتريه الخطر المحدودق به الذي يتهدده فى كل لحظة من حياته .

من هذين العاملين السريين شبت فى ضمير الانسان حرب سرية تصغر امامها تلك الحرب الخارجية وكانت منبعثاً لآلامه وشكوكه وسائر هواجسه وخواطره ومن هذه التفاعلات نفسها تجلت انوار العقل من كثافات هذه الطبيعة واشرقت شموس الفطنة من مشارقها المنيفة ولولا ذلك لصار الانسان حيواناً من الحيوانات ولما ارتقى ولا درجة من درجات الكمالات .

ارني اعلم الناس بامور حياته واصدقهم نظراً فى اعقاب محاولاته واقربهم تناولاً للحقائق من ذاته ثم قل لى بعيشك الا تراه اكثر من غيره مصائب ومحناً واشدهم من آلامه انيناً وحزناً نعم ان العقل ابن المصيبة والالم منهما تولد وعلى ثديهما ينمو الى الابد !

شغف الانسان بالتحسس على معرفة نفسه وكلف بكشف الغطاء عما يجهله منها لا سيما وهي احب الاشياء اليه وحياتها اعز شيء عليه . ينظر الانسان الى الطبيعة فى مجموعها فيرى الحياة فيها تتجدد والانواع تتلاشى وتتولد ولكنه متى نظر الى اجزائها رأى الامر مرعباً مهولاً ! رأى هوة الفناء فاغرة فاهاً تبتلع من اجزائها ما ادى وظيفته وانتهت حاجة الكل اليه فيكاد يصعق فزعاً ثم يعود سائلاً : هل انا ايضاً من ضمن المحكوم عليهم بهذا الفناء المظلم ؟ هل بعد ما احب واتألم واصح واسقم واذوق من صاب المصائب امر من العلقم اساوى فى نهايتى هذا الحجر الاصم او هذا الحيوان الاعجم ؟ هذه الاسئلة التى تشغل كل قلب وتنغص كل فكر هى التى لم تزل تشوه وجه مسرات الانسان وتحجب اليه لولم يكن بعد ان قد كان . وهى التى تسوقه رغم انفه الى معرفة ذاته للوقوف على سر حياته .

يستحيل ان يعرف الانسان نفسه الا على وجه محدود ولكنه ليس ممن يرضيه حد فيقف عنده ولا ممن يقنعه مرمى فيلتزم حده . الانسان يجد ويجتهد ويبتكر ويكتشف ولكنه متى قارب ان تهزه رحيق الطرب وينادى ان قد نلت من العلم الارب لا يلبث ان يرى مجهولا يرنو اليه وينهال عليه بل لا يلبث حتى يرى ان فيما علمه وزعم

معرفته مجهولاً بل مجهولات كثيرة . ولكن كيف يتسنى للانسان ان يخرج من ظل جثمانه او يصعد على كتفي نفسه ليلقي على الحائط الذي يستر عنه وجه الحقيقة ؟

هذه حالة الانسان في معقولاته اما حاله في ملذاته فهي انكى واشد ! تراه يتبع وراء ما يظنه لذة فيؤوب وملء وطابه حسرة وندماً وحشو فؤاده كدراً والماً . ولو حاسب بعض من يدعي اللذة انفسهم لعلموا ان اصغر نوع منها مبيد لحياتهم مطفىء لنور انسانيتهم فهي مما لا يعتد بها مطلقاً ما دام في توالبها تلك المخاوف المعجلة . يقول بعض هؤلاء ان سبب عدم وجود السعادة هو الجهل بطرائقها ولكننا نقول كما قال بعض الاولين : لا نتيجة لكثرة البحث عن السعادة الا توسيع دائرة الالم !

اما من حيثية اخلاقه فليس الانسان باقل استهدافاً للشقاء بها من سواها . تراه ادرك ان الفضائل عماد بقائه ودعائم وجوده وان الرذائل اسباب فنائه ولكنه كلما اشرأب نحو الخير وجد الشر لاصقاً بذاته ملازماً له في سائر مجهوداته . وربما سبق رغم انفه ليعمل ما يكرهه دون ما يرضاه . تراه ادرك قانون العدالة وتحقق انه قيوم سعادته فيتطاول الى التقرب منه ولكنه على قدر تقربه منه يدرك انه ظالم لنفسه وبني نوعه وهذا مهب آخر لمنغصات جديدة وآلام شديدة !

فما هو طريق الخلاص من كل هذه المكدرات الملازمة لهذا النوع الانساني العجيب ؟ كيف يتوصل الانسان الى التوفيق بين متعاكسات طبيعته والملائمة بين مايحس به وما يتوق اليه ؟ يقول بعضهم ان الخلاص معقود باهداب العلوم الطبيعية والمكتشفات المادية . نقول عفواً ! ان تلك المكتشفات والترقيات الجسدانية تزيد علل الروح استشراء وتجيد لادوائها ادواء لفقدانها اي سبب يعطيها بعضاً من الراحة التي تتطلبها وهل لدينا برهان على ذلك اسطع من الاستشهاد باقوال المتمدنين انفسهم قال الاستاذ (سيبيه) في كتابه الفلسفة الدينية : « ما سبب هذا الانين الذي يريد من كل جانب عند ظهور آخر كتاب فلسفي او قصة جديدة او قطعة تمثيلية في غاية الاتقان ان لم يكن هو الشهيق المالیخولي الذي تسببه حياة قريبة من التلاشي وعالم هرم واحس انه سائر الى قبره . أيجب علينا ان نابى التفكر لنحفظ لانفسنا الشجاعة على مضض الحياة ام نصبر على آلام الموت لنحفظ لها حق التفكر ؟ »

من كل هـذه المتعاكسات الضميرية والمحن الوجدانيـة والمصائب السرية ينشأ فى الانسان الاحساس بالدين وهو الاحساس الوحيد الذى يعزيه فى مصابه ويصبره على اوصابه ليس لكونه يحل له مسألة الحياة حلاً نظرياً مبهماً ولكن حلاً عملياً واضحاً . نعم ان ذلك الاحساس لا يهبه معلومات جـديدة ولكنه يرجع به بعد طول الشطط والتخبط الى وجوده الاصلى وكونه الاولى . هذا الاندفاع من النفس وراء التدين لا يعـد اندفاعاً فى الفراغ ولا هو من التشبث باطراف الخيـال . كلا لانه مستند على احساس ملازم لطبيعة الانسان ملاصق لكيانه . وهذا الاحساس هو الشعور الفطرى بالحاجة الى سند متين امام تيارات هذا الوجود المدهش واعاصير هذا الكون المرعب . من منا لا يشعر بحاجته الى سند يستند عليه عند اقل خطر يهدد وجوده ؟ من منـا لاتأخذه رعدة الخشية والخشوع اذا نظر الى القبة الزرقاء وتأمل فى تلك اللانهاية المخيفة ؟ من منا لا يستولى عليه احساس بخشية ما فى ليلة تحلو لك سماؤها وتتكاثف سحائبهـا وتزمجر رعودها وتلمع بروقها حينما يكون الهدو شاملاً والسكون عاماً ؟ بل من منا اذا تفكر انه لا محالة ميت لا يلم به نوع من الفزع يجبره رغم انفه الى التحسس على ما يخلصه من مخالب المنية حينما تمد ساعدها اليه ؟

هـذا الشعور بالحاجة الى السند هو القاعدة العملية القوية المحسوسة التى يرتكز عليها الاعتقاد الجازم بالمكون الاول لهـذا الكون والمبدع الحكيم لافاعيله وقواه الغير محـدودة وان شئت ان تتنزل فى التعبير فقل بتلك القوة العظمى السائدة على كل كائن العاملة فى كل ذرة . لم يخل عصر من اعصار التاريخ من هذا الشعور وفضلاً عن كونه لم يقل فى هذا العصر صار أقوى مما كان قبلاً على نسبة سمو الادراك والفكر وسيتزايد كلما ارتقى الانسان فى سلم الكمال . ولا نقول ذلك مجرداً عن البرهان واحسن عبارة موجودة امام اعيننا الآن جملة مهمة للفيلسوف (سبنيه) فى كتابه المتقدم ذكره قال حضرته : « لماذا انا متدين ؟ انى لم احرك شفتى بهذا السؤال مرة الا وارانى مسوقاً للاجابة عليه بهذا الجواب وهو : انا متدين لكونى لا استطيع خلاف ذلك لان التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون لي ذلك اثر من آثار الوراثة او التربية او المزاج . فاقول لهم قد اعترضت على نفسى غالباً بنفس هـذا الاعتراض ولكنى وجدته يقهقر

المسألة ولا يستطيع ان يحلها . ان ضرورة التدين التى اشاهدها فى حياتى الشخصية اشاهدها باكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية فهى ليست باقل تشبثاً منى باهداب الدين . فعبثاً تغشاها العبادات التى اعتنقتها ثم هجرتها (يعنى كل ذلك لا يجعلها تسأم الدين.) وباطلاً تهدم الفلاسفة والعلماء ما فيها من خرافات ومعتقدات . وباطلاً تترك الديانة آثار الدماء والنيران لائحة على تاريخ النوع الانسانى . فهى لم تزل حية مثل النبات القوى فى كل درجات العقول وفي كل ثورة من ثورات البشر . وقد قطع ساق هذا النبات من على وجه الارض الف مرة ولكن جذره الاصلى لا يلبث حتى ينبت ساقاً وافرعاً جديدة » ثم قال « اذن الدين مخلد وغير قابل للزوال وهو فضلاً عن عدم نضوب ينبوعه مع الزمن (تأمل) نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة . » ثم قال « اذن فلا يفرحن اعداء الدين ولا يتكدرن انصاره (تأمل) لان فرح الاولين وكدر الآخرين يثبت من كلا الحزبين عدم معرفتهما باصله وينبوعه . فانهم ان بحثوا عنه فى انفسهم يجدوه حياً فى حياتهم الداخلية على قدر ما يجدون مظاهره الخارجية مهددة (يريد بذلك الخرافات التى الصقت بالديانات .) ثم ختم عبارته بقوله : « فبالديانة ابتدأت الانسانية بان تحيا فى نفسها وبها ايضاً ستقوى وتنتهى . »

هذا هو القول الحق فان الفطر قد ملت فى بلاد المدنية من تعاكس وجداناتها وعدم الوفاق بين ماتعمل به وما تعتقده وكيف لاتمل الفطر ولا تستوحش الأفئدة من خلوها من اسمى رغائبها وحرمانها من اجل مرمى لمشاعرها ؟ كتب الكاتب الفرنساوى الشهير (بيرنجيه) فى مجلة المجلات الفرنساوية (مجلد ٢٤) يقول : « آه ! لو توصلت بعض القرائح السامية بعد ان تمزق غلف التعصب الدينى والعلمى فى آن واحد الى كشف النقاب عن حقيقة العلاقة الاكيدة الموجودة بين الاحساس الدينى وبين الفكر العلمى . وتسنى لها بذلك ان تحسم هذا الداء الذى يؤلم نفوساً كثيرة منذ قرون . قلنا لو توصلت بعض القرائح الى ذلك فبأى تهليل وتحمس تقابلها الشبيبة الجديدة . »

هذا الاندفاع من الطبيعة البشرية وراء تلمس العقيدة النقية المبرأة من كل الشوائب الوهمية والفروض الظنية تعد من اكبر مميزات القرن التاسع عشر فقد اصبحت الشغل

الشاغل لأساطين العلماء فى البلاد المتمدنة لارتباطها بمستقبل الامم تمام الارتباط . جاء فى مجلة المجلات مجلد ٢٤ ما يأتى : « ان هذه المسألة هي اهم مايشغل العالم المتمدن لأن مستقبل الامم المتمدنة يتعلق بحلها . »

ولكن من اى الطرق توجه العقل الحاضر الى حل هذه المسئلة السامية ومن اى المنافذ سرت اليها اشعة الافكار المبرأة من خطرات الوساوس وعلى اى دعامة ارتكز التصور للصعود اليها ؟ لم يجد الانسان الحالى محيصاً امامه الا الرجوع الى اصل الفطرة التى فطر الله الناس عليها خصوصاً بعد ما اصبح من المقرر الثابت ان نزغات تلاعبت بالاديان فاخرجتها عن اصولها ونزوات توزعت مبانيها فزحزحتها عن مراكزها اللهم الا تلك الفطرة الاولى التى لم تزل فى كل دور من ادوار الانسان تبرهن على استقلالها وثباتها قال (هنرى بيرنجيه) المتقدم ذكره فى المجلة نفسها « اذا كان الانتقاد التاريخي قد هدم كل الاشكال الثابتة الغير قابلة للتغير فى الاديان فانه لم يستطع ان يعدو على تلك الغريزة الدينية بل قد شهد باستمرارها وشيوعها فى كل دور من ادوار التاريخ وان كل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد بأن الانسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم انفه . ففى كل جهة وكل زمان وكل مكان قد شوهد احتياج الانسان الى الدعاء والعبادة والتضحية فى اخس الأديان الوثنية كما فى ارقى العبادات الروحانية . هذه هي الشرارة البسيكولوجيه (النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الاديان فمن المستحيل عليه ان يطفئها ولكنه سينقلها الى المستقبل وحيث ان الاديان ليست الامظاهر خيالية لهذه الغريزة الدينية فستتلاشى آجلا او عاجلا ككل الآثار الانسانية ولكن تلك الغريزة لن تتلاشى ابداً الامع الانسان نفسه . »

هذا الرجوع من الطبيعة البشرية الى دينها الفطرى ليس ببعيد العهد عنا قال الكاتب نفسه (نؤمل فى ذلك (اي الوصول الى حل المسألة الدينية) لا سيما وانه منذ مائة عام قد كوّنت الديانة الباطنية ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنساويين (فجان جاك روسو) و (لمرتين) و (لمنيه) و (ميشليه) و (كينيه) كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا (ارنست رنان) و (چيو) و (شورپه) و (سبتيه) قد اعطوها قوة جديدة ودقة عظمى .) فما هي ياترى أصول هذه الديانة الجديدة التى

يؤكدون انها غاية ما ترمى اليه مواهب الانسان من العقيدة ؟ يحسن بنا أن نلقي هذا السؤال على اساطين الفلسفة فى اوروبا . قال الفيلسوف (كارو) في كتابه (الابحاث الاخلاقية على الزمان الحاضر) : (قواعد الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود اله مختار خلق الكائنات واعتنى بها وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانسانى (وهذا غاية التنزيه) ووجود روح فى جسم الانسان متصفة بالذكاء والحرية ومحبوسة في هذا الجسم المادى امداً لتبتلى فيه . وهذه الروح يمكنها بارادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها ان تسفله باستئناسها بالمادة الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة التعقل على الاحساس.ووضع الحرية الاخلاقية التى هي ينبوع واصل كل الحريات تحت سيطرة الاعتدال . واعطاءالاخلاق الفاضلة اسمها الحقيقى وهوالامتحان والابتلاء وتحديد غرضها الحقيقي وهو التخليص التدريجي للنفس من علائق الجسم والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة . واخيراً الاعتراف بقانون الترقى ولكن بدون فصل رقى الانسان فى مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التى هي وحدها تبرر تلك السعادة » وقال الفيلسوف الطائر الصيت (جون سيمون) في كتابه (الديانة الطبيعية) : « كل اصول مذهبنا هذا واضحة لارموز فيها.اما اصوله فهى الاعتقاد بوجود اله قادر على كل شيء ولايغيره شيء خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة.ووجود حياة اخرى تؤدى لناكل وعود هذه الحيـاة الدنيا وتكافئ المظالم بالجزاء الاوفى » هذا ولا شك رجوع من عقلاء النوع الانسانى الى الدين على ابسط اشكاله اى الى الدين الفطرى الذى حمله الانسان معه بالفطرة . فلنرفع صوتنا اذن فى ظل معارف القرن العشرين قائلين :

﴿ الاسلام هو دين الفطرة ﴾

قال الله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثرالناس لايعلمون » هذا نص صريح على ان الدين الحق هو الوقوف عنـد حد ما فطر عليه الانسان فى صميم طبيعته وان كثرة اللجاج واعطاء الخيالات حق التلاعب فى اصول العقائد ليس من الدين النقى فى شيء بل من

شطحات الظنون ونزغات الاهواء التى لم ينزل الله بها من سلطان . قال الله تعالى : (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى)

علم الله ان النفوس تتوق الى ماسترته عنها يد الغيوب وتتشوف الى كشف الغطاء عن كل محجوب وان هذا الميل قد يطرحها الى محاولة البحث فى كنه ذاته وهو البحث الذى فصم روابط الملل بعد استحكامها ونكث فتل الوحدة من بينها فسد على متبعى شريعته الفطرية هذا الينبوع من الشر سداً محكما فقال تعالى : (ليس كمثله شيء . لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار » فكان هذا اكبر رادع لشهوات العقول عن التطاول الى مقامه الرفيع بما لديها من وسائل واهية ومعلومات نسبية ضئيلة .

علوم الانسان على اختلاف انواعها وقواه العقلية على كبر سلطانها ليست الا نتائج تدافع القوة الادراكية مع هذا العالم الارضى المتلاشى . اذا كان الامر كذلك اليس من الجنون المحض محاولة الوصول بهذا العلم المحدود وذلك العقل القاصر الى تحديد صفات سر الاسرار الكونية التى لانهاية لها وادراك كنه ذاته العلية التى لاحد لكمالها ؟ اى عاقل يثلج صدره على ما وصل اليه عقله من صفات الله تعالى وهو يرى بعينيه ان علم اللاهوت عند سائر الامم متبع خطة التدرج فى الترقى على حسب ارتقاء العقل البشرى (قال فلامريون) فى كتابه المسمى (الله فى الطبيعة) « ان فكرة اسلافنا فى الله كانت فى كل زمان مناسبة لدرجات العلم التى حصلها النوع الانسانى على التعاقب » اذا كان الامر كذلك وثبت ان كل وصف يستطيع العقل ان يصف الله به احط من مقامه القدسى بمراحل بل من المؤكد انه لايلبث الا قليلا ثم يصير لدى العقل المستقبل فى أخس درجات الخشونة بالنسبة لما يكون قد وصل اليه علمه من عظم قدر الله تعالى فكيف لايرعوى الانسان بعد ذلك كله ويعتقد ان كمال الله فوق كل كمال وان التهجم على فتق الحجب التى تحجبنا عن ذاته بمسابير هذا العقل الاعتيادى القاصر جريمة لاتغتفر وان الواجب على كل ذى فطرة سليمة ان يكتفى بما فى وجدانه من الاحساس بوجوده مقراً بالعجز عن تناول علم ذاته ؟ هذا هو التنزيه فى الاسلام الذى آب اليه اصحاب الديانة الفطرية الطبيعية بعد ما ارتهم علومهم التجريبية ان ادعاء الاحاطة بسر هذه المادة المحسوسة جهل فاضح فما بالك بسر الاسرار ومشرق الارواح والانوار . قال الفيلسوف (فلامريون) مندهشاً من عظمة الله تعالى

ومستهجنا عقل من يجارى على تحديده « اللهم ما أكبرك ! من ذا الذي تجاسر وسماك لأول مرة ؟ ومن ذلك المتكبر المجنون الذي حاول لأول مرة ان يعرفك بتعريف ! يا الله . يا الله . ياقوة غير متناهية ! يارحمة غير محدودة ! يالانهايةسامية ! يامن لاتدرك ذاته العقول ! » الخ . أليس هذا التنزيه الذى يفخر به علماء العصر الحاضر ويعدونه علامة لرقى العقل الانسانى خطوات جديدة للفلسفة الدينية ليس هو الا ترديداً لقول (ابى بكر الصديق) رضى الله عنه « العجز عن درك الادراك ادراك » وقول علي كرم الله وجهه « هو القادر الذى اذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطع قدرته . وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس ان يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته . وتوهلت القلوب اليه لتجرى فى كيفية صفاته . وغمضت مداخل العقول في حيث لاتبلغه الصفات لتناول علم ذاته ردعها وهى تجوب فى مهاوى سدف الغيوب متخاصة اليه سبحانه فرجعت اذ جبهت معترفة بانه لاينال بالاعتساف كنه معرفته ولاتخطر ببال اوائل الريات خاطرة من تقدير جلال عزته » هذه هي عقيدة المسلمين فى تنزيه خالقهم عن مشاكلة المخلوقين وقد رأيت انها النقطة التى آب اليها النوع الانسانى بعد ما طاف على كل دور خيالى وارتطم بكل عقبة فى سبيل العودة اليها .

لا يلزمنا ان نختم مقالنا هذا حتى نشير الى موقف عقائدنا الطاهرة امام العلم فان مسألة التوفيق بين هذين المطلوبين الروحيين (العلم والدين) اصبحت الشغل الشاغل للغيورين على حياة هذا النوع الانسانى . وقد حاول نفر غير قليل من اصحاب الأديان ان يطبقوا بينها وبين العقل فتعاصى عليهم الامر وآبوا والسخرية تشيعهم الى حيث لا تسمع لهم بعد ذلك ركزاً . أما الاسلام الذى يصرح بلسان كتابه السماوى بأن الانسان نوع مشترك بين العالم العلوى والسفلى او الروحانى والجثمانى وانه مستعد لبلوغ غاية لا تحددها الافكار البعيدة المرامى سواء في الترقيات الصورية او المعنوية وان الله قد استودعنا من المواهب السامية والمدارك العالية ما يبلغ بنا تلك القمة الكمالية وانه سخر لنا جميع العوالم الطينية والنورانية . قلنا ان الاسلام الذى هذا شأنه لا يعقل انه يعارض العلم الطبيعى او يجافيه بوجه من الوجوه .

ان دينا يقول لنويه : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » ويقول :

« خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت . » ويقول : « اطلب العلم من المهد الى اللحد . » لا يعقل انه يعارض علماً او يصادم حكمة . نعم لم يأت الاسلام ليعلم ذويه نواميس الجذب والتنافر والامتصاص ولا قوانين الزوايا الكروية ومساحات القطاعات الزائدة والناقصة ولكنه أتى بالدعوة الى تعلمها وتبكيت الغافلين عنها فقال تعالى : وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون . » « قل انظروا ماذا في السموات والارض . »

نحن لو تأملنا فى منابع كل العلوم الطبيعية وجدناها فى خصائص العقل والحس . فاما العقل فقد رفع الاسلام من شأنه لدرجة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الامم المتدينة حتى انه جعله مناط الايمان واصل اليقين . قال عليه الصلاة والسلام : « الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له . » بل امرنا بتطبيق اصولنا الدينية على العقل حتى تطمئن النفوس على عقيدتها ولا يخامرها الشك فيها فقال سيد الوجود صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه .الخ الحديث . » وجعل مقدار الثواب فى الدار الآخرة متناسباً مع درجة العقل فى الحياة الدنيا فقال عليه الصلاة والسلام : « وانما يرتفع العباد غداً فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم . »

وأما من جهة الحس فلا يتصور أن الاسلام يهب للعقل مثل ذلك السلطان الذي قدمناه لك ولا يعلق على احكام الحس أهمية ما . الاسلام قضى على الظن والوهم وهما يقابلان الحس قضاء شديداً وانذر ذويهما اكبر انذار وحذر متبعيه من مجاراة اصحاب الظنون والاوهام فقال تعالى : « وان تطع اكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون . » وقرر لنا بعد ذلك أن احكام الحس لا تقبل جدالاً ولا تحتمل مماراة وقذف على الذين يمارون في ذلك من سهام التبكيت والتقريع ما لا يرضى به الاعباد الوهم فقال تعالى : « أفتمارونه على ما يرى »

هذا حكم الاسلام بالنسبة لمنبعى العلوم الطبيعية وهما الحس والعقل وقد رأيت مقدار تشريف الاسلام لهما وانه قد قررهما لمتبعيه فى الحين الذى كانت فيه سائر الامم تحنى رؤوسها لاحكام الاوهام وخزعبلات الاحلام وتعد مقاضات العقائد أمام محاكم العقل من الضلالات التى يستحق صاحبها الحرق بالنار . ليس فى الاسلام عقيدة لا تنطبق على

قوانين العقل والحس معاً ومن ادعى غير ذلك فليأتنا بسلطان مبين .

هذا شأن الاسلام من حيث طهارة العقيدة وملاءمتها لما يعده اساطين فلاسفة العصر ديناً فطرياً طبيعياً لملاءمته لحاجات النفوس وانطباقه على نواميس الخليقة . اما آثار هذا الدين على همم معتقديه من حيث الترقيات المادية فما لم يرو لنا تاريخ الاديان مثلها لاى دين من الاديان ؟ جاء هذا الدين الى تلك الامة الصغيرة وهي من معاداة المدنية بمكان ظنت معه ان حالة البداوة ارقى احوال الانسانية وغالت فى ذلك فعدت سكنى القصور والاعتصام بالحصون من بعض مسبات الفرس والروم فلم يمض عليها غير بضع وعشرين سنة حتى دبت فيها روح جديدة وسرت فى عروقها حياة غير التى كانت لديها من قبل ولم يدر عليها قرن بعد تلك الحركة حتى استولت على صولجان السلطة والعظمة ووطئت بلاداً لم تكن تعرف اسمها وارتقت فى الوجود مكاناً لا يمكن ان يتجاهله مكابر . قال العلامة (دروى) احد وزراء المعارف السابقين فى فرنسا فى تاريخه « بينما اهل اوروبا تائهون فى دجى الجهالة لايرون الضوء الا من سم الخياط اذ سطع نور قوى من جانب الامة الاسلامية من علوم ادب وفلسفة وصناعات واعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدائن بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفاس وغرناطه وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت فى الامم واغتنم منها اهل اوروبا فى القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنوناً علمية يأتى بيانها . » وقال فى سبقهم فى كافة المحاولات الانسانية : « واما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها بسائر الاوقات ثم لما امتدت سلطنتهم من (البيرينية) وهي جبال بين فرنسا واسبانيا الى جبال (هماليا) التى باقصى شمال الهند صاروا اكبر تجار الهند . واما الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها اذ ليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب الحياة وتوزيعها بلطف فى رمزارعهم الواسعة تحت شمسهم المحرقة فسيرتهم فى ذلك العامل بها الى الآن اهل روضة اسبانيا صالحة لان نجعلها اسوة نقتدى بها فى فلاحتنا الفرنساوية . واما الصناعات فان العرب تعلموا جميعها لما دخلوا بلاد الرومانيين العظيمة حتى صاروا من احذق اربابها . » وقال فى سعة سلطانهم : « قد امتد ملكهم فى ظرف مائة سنة من ظهور الاسلام مثل ما يمتد عظيم الخلقة فاتحاً ذراعيه لالتقاط شيء فبلغ من اقصى الهند الى جبال (پيرينيه) الكائنة

بين فرنسا واسبانيا وقدر امتداد هذا الملك من الف وسبعمائة الى الف وثمانمائة فرسخ ولم تبلغ هذا المبلغ دولة من الدول الماضية . » وقال الاستاذ (سديو) فى تاريخه وهو أحد اعضاء جمعية العلماء الفرنساوية : « وبعد ظهور النبي صلى الله عليه وسلم الذي جمع قبائل العرب امة واحدة تقصد مقصداً واحداً ظهرت للعيان امة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر (تاج) فى اسبانيا الى نهر (الجانج) في الهند ورفعت على منار الاشادة اعلام التمدن فى الارض ايام كانت اوروبا مظلمة بجهالات اهلها فى دوائرها القرون المتوسطة » ثم قال : « انهم كانوا فى القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الامم وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التى امتدت على اوروبا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ورجعوا الى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التى عثروا عليها بل اجتهدوا فى توسيع دوائرها وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول في عجائبها . ثم استشهد بقول (اسكندر همبولد) ان العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الامم المنتشرة من شوطئ نهر (الفرات) الى الوادى الكبير باسبانيا وبين العلوم واسباب التمدن فتناولتها تلك الامم على ايديهم لان لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم اثرت فى الدنيا تأثيراً لايشتبه بغيره فكانوا فى طبيعتهم مخالفين لبنى اسرائيل الذين لايطيقون مخالطة احد من الناس فانهم خالطوا غيرهم من غير ان يخلطوا به ولا يتبدل طبعهم بكثرة المخالطة ولاينسون اصلهم الذي خرجوا منه وما اخذت امة (المانيا) من التمدن الابعد مدة طويلة من فتوحاتهم بخلاف العرب فانهم كانوا يحملون التمدن معهم فحيثما حلوا حل معهم فيبثون فى الناس دينهم وعلومهم ولغتهم الشريفة وتهذيباتهم واشعارهم الشهيرة التي هي اساس بنى عليه (المنسفر والتربدور) اشعارهم . ثم قال بعد ذلك : ونعود الآن فنقول انه ثبت عندنا بما صنفه العرب واخترعوه رجحان عقولهم الغريب فى ذلك الوقت الذى وصل صيته الى اوروبا النصرانية وهذا حجة على انهم كما قاله غيرنا ونحن نعترف به اساتذتنا ومعلمونا . »

هذا شأن الاسلام من حيث الامور المعنوية والصورية . فماذا نريد بعد هذا ؟ رأينا باعيننا ان النوع البشرى يتقرب من عقائدنا يوماً بعد يوم كما اثبتنا ذلك بالبرهان فى هذا الفصل ثم رأينا من شهادة علماء الفرنجة انفسهم ان ديننا دين مدني عجيب التأثير ثم انا

نرى انه اخذ في الانتشار بطريقة مدهشة رغماً عن كل مايقام دونه من العوائير . اذن فلم يبق علينا الا ان نبرهن انا حقيقة اخلاف اولئك الاقيال الذين يقول عنهم (سديوو دروى) انهم كانوا اساتذة العالم ومهذبيه فهل يأتي على المسلمين زمان يلتفتون فيه الى مابين ايديهم من نواميس الحياة فيدهشون الامم بسرعة نهوضهم من كبوتهم كما ادهش العالم اباؤهم من قبل ؟ « نعم ولتعلمن نبأه بعد حين »